تورجنيف
ترجمة: الدكتور سامي الدروبي

مياه الربيع



روايات الهلال



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٧٧ — يناير ١٩٧٢ — ذو القعدة ١٣٩١

No. 277 — January 1972

رئيس مجلس الإدارة : يوسف السباعي
رئيس التحرير : صالح جودت

بيانات ادارية

ثمن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٠٠ مليم ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ في سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٢ جك والقيمة تسدد مقدما نقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية ـ في الخارج بتحويل أو بشيك مصرفي قابل الصرف في « جمهورية مصر العربية » ب والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادي ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ عشرة « خطوط »





روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشـــــــة
الفنانة سميحة حسنين

مياه الربيع

بقلم

تورجنيف

ترجمة

الدكتور: سامي الدروبي



دار الهلال

أيتها السنون الفرحة
أيتها الايام السعيدة
ما كان أشبه جريانك
بجريان مياه الربيع
« أغنية روسية قديمة »

فى نحو الساعة الثانية من الصباح عاد سانين الى غرفته ، فما ان أشعل خادمه الشموع حتى صرفه ، وارتمى على مقعد قرب المدفأة ، ودفن وجهه فى يديه .

لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من اعياء جسمى ونفسى.

لقد عاد من سهرة قضاها مع نساء لطيفات ، ورجال مثقفين ، كان بعض هاته النساء على حظ وافر من الجمال ، وكان جميع الرجال تقريبا على جانب كبير من الذكاء والموهبة ، وقد وفق هو نفسه فى الحديث ، بل لقد لمع نجمه ، ومع ذلك لم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من السأم الذى تحدث عنه الرومانيون فى سالف الازمان ، ولم يشعر فى حياته يوما بما يشعر به الآن من « اشمئزاز من الحياة » ، وهو شعور ملك عليه نفسه واستبد به استبدادا .

لو كان أصغر سنا لبكى من شدة القلق والضجر والاضطراب ، ان مرارة لاذعة كاوية تنفذ الى اعماق نفسه كأنها العلقم مذاقا . ان شعورا بالغثيان والالم يخنقه خنقا ، ويلفعه بضباب كضباب ليل الخريف يحيط به من كل جانب ، وهو لا يعرف كيف يتخلص من هذا الظلام ولا من هذه المرارة .

انه لا ينتظر أن يخفف النوم عنه وطأة هذا العذاب ، فهو يعرف انه لن ينام .

واخذ يفكر . . . اخذ يفكر تفكيرا كسولا ثقيلا خبيثا .

فكر فى غرور الانسان ، فى سخفه ، فى تفاهته ، فى زيفه . . .

واستعرض جميع الاعمار ، فلم يستثن منها عمرا « لقد دخل هو فى الثانية والخمسين من عمره » ، ان الانسان ليظل طوال حياته يجهد فى فراغ ، يضرب الماء بعصا ، يكذب على نفسه صادقا نصف

صدق واعيا نصف وعى ، ثم تهبــط الشيخوخة على الراس فجأة كأنها الثلج . . . ومع هبوط الشيخوخة يدلف الخوف من الموت ، وما ينفك هذا الخوف يشتد ، وما ينفك ينهش ويفترس ويضنى . . . الى ان يثب المرء الى الهاوية !

والمحظوظون هم الذين تنقضى حيــاتهم على هــذا النحو ! .. سعيد ذلك الذى يبلغ النهاية قبل ان يرى الامراض والآلام تعلوه كما يعلو الحديد الصدأ . . .

ان الحياة لا تبــدو لسانين بحرا متلاطم الامواج كما يصــورها الشعراء ، بل محيطا هادئا لا يعكره شيء ، ساكنا شفافا حتى اعمق اعماقه الظلماء . . . وهو يتصور نفسه جالسا فى مركب مترنح ، يرى هناك ، فى ذلك القاع المظلم ذى الحمأ ، حيتانا ضخمة ، غيلانا شوهاء ، هى شرور الحياة ، هى الامراض ، والآلام ، والجنون ، والشقاء ، والعمى . . .

وانه لينظر فيرى غولا من هذه الغيلان يخرج من الاعمــاق ، ويظهر على سطح المــاء ، فتتضح معالمه ، ويصبح فى الوقت نفسه اشد نكرا وهولا ، دقيقة واحدة ، ثم يقلب الغول المركب . . .

ولــكن الغول يختفى ، يبتعد ، يعود الى قاع البحر . . . يتلبد فيه ، فيدور المــاء حوله . . . ولــكن ساعة آتية . . . لسوف يقلب المركب . . .

هز سانين راسه ، واندفع ينهض عن مقعده ، وسار فى الغرفة جيئة وذهابا ، ثم جلس الى مكتبه ، ففتح أدراجه واحدا بعد آخر ، واخذ ينبش اوراقه ، وخاصة الرسائل القديمة التى وصلت اليه من نساء . . .

انه لا يعرف ، هو نفسه ، لمــاذا يحرك هذه الادراج ، انه لايبحث عن شيء ، كل ما يريده هو ان يشغل نفسه بأمر من الامور ، تخلصا من هذه الافكار التى تعذبه .

وبعد ان فض عددا من هــذه الرســائل عرضا « وقد وجد فى احداها زهرة جافة حال لونها » ، هز كتفيه ، ونظر الى الموقد ، ووضع الرسائل جانبا ، وهو ينوى ان يحرق ، عاجلا أو آجلا . . هذه الوريقات التى لا طائل تحتها .

ومر بيديه على جميع الادراج بسرعة ، فاذا هو يحملق على حين فجأة ، ويخرج ببطء علبة صغيرة مثمنة من طراز قديم ، ثم يرفع غطاءها ببطء ، كان فى العلبة ، بين طبقتين من القطن المصفر ، صليب

صغير من عقيق .

نظر سانين فى هذا الصليب دهشا بضع لحظات ، ثم اذا هو يتنهد على حين فجأة .

ان قسمات وجهه تعبر عن الحسرة والفرح معا .

كان المعنى الذى ظهر فى وجهه أشبه بالمعنى الذى يظهر فى وجه انسان يلقى على حين فجأة صديقا لم يره منذ مدة طويلة ، ولكنه احبه حبا رقيقا ، فاذا هو يظهر له بغتة ، كما كان فى الماضى ، على شيء من التغير أحدثه التقدم فى السن .

نهض سانين ، وعاد الى المدفأة ، وجلس على مقعده من جديد ، ودفن وجهه فى يديه مرة أخرى .

« لماذا يقع هذا فى هذا اليوم ؟ »

كذلك تساءل سانين .

وتذكر سانين أمورا انقضت منذ مدة طويلة .

اليكم الذكريات التى طافت فى خياله :

— ١ —

فى صيف عام ١٨٤٠ ، كان سانين ، الذى بلغ الثانية والعشرين من عمره ، بمدينة فرنكفورت ، فى طريق عودته من أيطاليا الى روسيا .
كان سانين لا يملك ثروة كبيرة ، ولكنه كان مستقلا ، بلا أسرة تقريبا .
لقد ورث بضعة آلاف روبل عن شخص يمت اليه بقربى بعيدة ، فقرر أن ينفق هذا المبلغ فى خارج روسيا ، قبل أن يصبح موظفا ، وقبل أن يلتحق بخدمة الدولة ، هذه الخدمة التى يرى أن الحياة بدونها مستحيلة .

وقد نفذ سانين هذه الخطة تنفيذا دقيقا ، حتى أنه ، يوم وصل الى فرنكفورت ، لم يكن قد بقى له من المال الا ما يكفيه للعودة الى بطرسبرج .
ولم تكن السكك الحديدية كثيرة فى ذلك العصر ، وكان الناس يسافرون فى عربات عامة . فاشترى سانين تذكرة السفر ، ولكن العربة لن تسافر الا فى الساعة العاشرة من المساء ، فكان ثمة وقت طويل يجب أن يقضيه فى فرنكفورت قبل السفر .

ومن حسن الحظ أن الجو كان جميلا فى ذلك اليوم ، فبعد ان تغدى سانين فى فندق « البجعة البيضاء » الذى كان شهيرا . فى ذلك الزمان ، أخذ يضرب فى المدينة . فمضى يشاهد « آريان » دانيكير فلم تحظ باعجابه كثيرا ، وحج الى بيت جوته الذى لم يكن قد قرأ له الا « فرتر » ، فى ترجمة فرنسية ، وقام بنزهة على شواطىء نهر الماين ، ثم أخذ الضجر يتسرب الى نفسه .. وأخيرا ، فى الساعة السادسة ، وقد أعياه السير واغبر حذاؤه ، وجد نفسه فى شارع من أصغر شوارع فرنكفورت .
ولمح هنالك ، على بيت من البيوت المتباعدة فى ذلك الشارع هذه اللافتة : « حلوى أيطالية جيوفانى روزيللى » .
فدخل سانين يريد أن يشرب كأسا من شراب الليمون ، ولكنه لم يجد فى الدكان أحدا . وراء البسطة من هذا الدكان ، على رفوف

خزانة معطلية ، كانت تصطف ، كما في صيدلية ، زجاجات عليها بطاقات مذهبة ، وآنية مليئة بالبســكويت والشيكولاته والفاكهة المسكرة ، ولكن «الدكان» كان فارغا . لم يكن الا ثمة هرة شهباء ، على كرسى عال ، قرب النافذة ، تطرف عينيها ، وتشخر ، وتهز قوائمها ، وقد اصطبغت بلون أرجواني ساطع من الاشــعة المائلة التى تلقيها عليها الشمس الغــاربة . وعلى الارض مكبة كبيرة من خيوط الحــرير قد تدحرجت على مقربة من سلة الحطب المنقوشة ، المقلوبة .

ان جلبة غامضة تأتى من الغرفة المجاورة .

ظل سانين ساكنا ، بينما كان جرس الدخول يرن ، ثم صرخ يسأل بصوت عال :

ــ لا أحد هنا ؟

فاذا بباب الحجرة المجاورة يفتح في هذه اللحظة ، فيشده سانين من شدة الاعجاب ...

ـ ٢ ـ

ان فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها تندفع الى الدكان ، وقد انسدل شعرها الاسمر على كتفيها العاريتين ، وامتد ذراعاها الى أمام . فلما لمحت سانين هرعت اليه ، وامسكت يده ، وجرته وهى تصيح بصوت لاهث :

ـ تعال حالا ، من هنا ، تعال انجده !

ان دهشة سانين لم تسمح له بان يستجيب للنداء حالا ، فظل مسمرا فى مكانه .

انه لم ير فى حياته جمالا كهذا الجمال .

والتفتت الفتاة اليه مرة اخرى وقالت له :

ـ تعال ، تعال .

كان فى صوتها وفى نظرتها وفى حركة يديها المتقبضتين التى وضعتهما على خديها الشاحبين فى تشنج، كان فى ذلك كله من الاضطراب والحزن والذعر ما جعل سانين يتبعها سريعا نحو الباب الذى كان قد ظل مفتوحا .

فاذا هو يرى ، فى الغرفة التى دخلها وراء الفتاة ، فتى فى نحو الرابعة عشرة من عمره مستلقيا على أريكة من الشعر من طراز قديم . ان الفتى يشبه الفتاة كثيرا . لاحظ سانين ذلك ، فأدرك انه أخوها .

كان الفتى شاحبا شديد الشحوب ، كان بلون الشمع أو بلون الرخام . وكانت عيناه مغمضتين . وكان ظل شعره الكثيف الاسود اشبه ببقعة على جبينه الداوى وحاجبيه الدقيقين الساكنين . وكانت اسنانه المشدودة ترى من بين شفتيه المزرقتين .

لقد انقطعت أنفاسه . ان احدى ذراعيه تتدلى على الارض، والثانية ملقاة وراء رأسه .

كان الفتى مرتديا ملابسه ، وكانت أزراره محكمة حتى الذقن ، وكانت ربطة عنقه تشد رقبته .

صاحت الفتاة تقول :

ـ مات ، مات . كان منذ لحظة جالسا هنا يتحدث معى ، فاذا هو يسقط فجأة ، ثم لا يتحرك ابدا ... يارب ، يارب . الا تستطيع ان

تنقذه ؟ ليت أمي كانت في البيت .
ثم أردفت تقول بالايطالية :
ـ هيه بانتاليون ، هل جئت بالطبيب ؟
فأجابها صوت أبح من وراء الباب يقول :
ـ أرسلت لويزا الى الطبيب ، سنيورا .
ودخل الى الغرفة عجوز قصير يرتدى سترة فراك بلون الليلك ، مزدانة بأزرار سوداء ، ولها ياقة تحوطها ربطة عنق عالية ، وسرواله أصفر من قطن ، وجورباه من أزرق الصوف . . . دخل يعرج من تصلب في ساقيه .
كان وجهه الصغير يختفي اختفاء تاما وراء غابة من الشعر الاشهب بلون الحديد . ان هذا الشعر الذى يذكر بأدغال العوسج ، ويتنفش كشنا ساقطة على كل جهة من الجهات ، يجعل العجوز أشبه بدجاجة ذات قنبرة . ومما يزيد الشبه كمالا انك لا تستطيع أن تميز تحت هذه الكتلة الشهباء القاتمة الا انفا مسنونا وعينين صفراوين مدورتين .
تابع العجوز يقول بالايطالية :
ـ لويزا أسرع مني . أنا لا استطيع ان اركض .
وكان يرفع قدميه واحدة بعد أخرى ، من شدة مايعاني من ألم فيهما بسبب داء المفاصل . وكان ينتعل حذاءين ضخمين مربوطين باشرطة .
ـ جئت بماء .
قال العجوز ذلك ، وهو يمسك بيديه اليابستين المعروقتين عنق القارورة الطويل .
صاحت الفتاة تقول :
ـ ولكن يمكن أن يموت ونحن ننتظر الطبيب !
ثم اضافت وهي تمد يدها نحو سانين :
ـ لعلك تستطيع أن تفعل شيئا في مساعدتنا يا سيدى .
قال بانتاليون :
ـ يجب أن نفصده . انها سكتة .
كان سانين يعرف ، رغم جهله بالشئون الطبية جهلا تاما ، أن نوبات السكتة القلبية لا تصيب من هو في الرابعة عشرة من عمره . فقال لبانتاليون :
ـ بل هذا اغماء ، وليس سكتة . هل عندكم فرشاة !
فرفع العجوز وجهه المتقبض يسأل :
ـ ماذا ؟

فأجابه سانين بالالمانية والفرنسية :
ـ فرشاة ، فرشاة !
ثم قال وهو يحرك يده بحركة من ينظف ثيابه بفرشاة :
ـ فرشاة ، فرشاة .
ففهم العجوز أخيرا ، فقال بالايطالية :
ـ ها ، فرشاة ! طبعا عندنا فرشاة !
ـ هاتها بسرعة ، سوف ننفض عنه ملابسه ، وندلك جسمه بالفرشاة .
ـ طيب ، طيب ... وهل نصب ماء على رأسه ؟ الا ترى أن نصب ماء على رأسه ؟
ـ لا ، لا ... سنرى فيما بعد ... هات الفرشاة أولا ، أسرع .
وضع بانتاليون قارورته على الارض ، وخرج من الغرفة ، وعاد يحمل فرشاة ثياب وفرشاة شعر .
ودخل كلب مجعد الوبر يحرك ذيله تحريكا عنيفا ، وأخذ ينظر الى العجوز . والى الفتاة وحتى الى سانين نظرة مستطلعة كأنه يتساءل عن هذه الجلبة وهذا الاضطراب في البيت !
فك سانين أزرار سترة الفتى ، وحل ياقة القميص ، وشمر الكمين ، ثم تناول الفرشاة وأخذ يدلك صدر الفتى ويديه بكل قواه .
وأخذ بانتاليون يدلك حذاءى الطفل وسرواله بحماسة لا تقل عن حماسة سانين ، بينما ركعت الفتاة قرب الاريكة تمسك برأس المريض ، وتحتضن بنظراتها وجه اخيها دون أن يرف لها جفن .
كان سانين يدلك بلا توقف، ولكنه كان يلاحظ الفتاة بزاوية عينه، فيقول بينه وبين نفسه :
ـ لله ما أجملها !

— ٣ —

انف الفتاة كبير قليلا ، ولكنه جميل مستقيم . وثمة زغابة يسيرة تلقى على شفتها العليا ظلا خفيفا . ولون وجهها كاب ، كأنه العاج أو الزبد الابيض . وشعرها متموج براق ، كشعر يوديث التى رسمتها ريشة آلورى وحفظت صورتها فى قصر بيتى . وعيناها هما اللتان تخطفان البصر خاصة .. عينان بلون أشهب قاتم ، دائرة البؤبؤ منها محفوفة بحاشية سوداء ... عينان رائعتان ، ظافرتان ، حتى فى هذه الساعة التى يطفىء فيها الذعر والالم ما فيهما من بريق .

تذكر سانين ، على غير ارادة منه ، البلاد الجميلة التى يرجع الآن من زيارتها .

ولكنه لاحظ ان الجمال الذى يراه الآن لم ير مثله حتى فى ايطاليا .

كانت الفتاة تتنفس تنفسا طويلا متفاوتا . ذلك انها كانت تحبس انفاسها كانها تنتظر فى كل مرة أن ترى هل اخذ أخوها يتنفس .

كان سانين يستمر فى دلك المريض ، دون أن يستطيع الامتناع عن ملاحظة بانتاليون ايضا ، الذى كان وجهه الغريب لافتا لانتباهه .

كان العجوز قد أرهقه التعب ، فهو يلهث .

وكان كلما حرك فرشاته على جسم المريض مرة ، يزفر زفرة شاكية ، بينما كانت خصلات شعره الكثيفة المبللة بالعرق تتأرجح ثقيلة فى كل اتجاه ، كأنها ساق نبتة كبيرة يبللها المطر .

هم سانين أن يقول للعجوز : اخلع حذاءه على الاقل ، حين رأى الكلب ينتصب فجأة على قائمتيه الخلفيتين ، ويأخذ بالعواء ، وقد أهاجته جدة المشهد .

فصاح العجوز بالكلب قائلا :

— تارتا جليا ، كانا جليا .

وفى هذه اللحظة نفسها ، تبدل وجه الفتاة ، وتقوس حاجباها ، وزاد اتساع عينيها ، واشرق الفرح فى نظرتها .

فأنعم سانين نظره فى المريض ، فرأى وجهه يسترد بعض لونه ، ورأى أهدابه تتحرك ... ورأى منخريه ينبسطان . ونشق الطفل الهواء من خلال أسنانه التى لا تزال مشدودة ، وزفر .

صاحت الفتاة :

ـ أيمليو ... حبيبي ايمليو .

فانفتحت عينا الطفل السوداوان ببطء . انهما لا تزالان تنظران نظرة مبهمة ، ولكنهما أخذتا تبتسمان ابتساما خفيفا . وطافت هذه الابتسامة الذاوية نفسها في شفتيه الشاحبتين . ثم حرك ذراعه المتدلية ، ورفعها بحركة واحدة الى صدره .

فرددت الفتاة تقول وهي تنهض :

ـ ايمليو .

ان وجه الفتاة يعبر عن عاطفة تبلغ من العنف ان من يراها يحسب انها ستنفجر باكية ، أو ستنفجر ضاحكة ضحكا مجنونا .

وصاح وراء الباب صوت يقول :

ـ ايمليو ! ماذا به ؟

ودخلت الغرفة بخطا عجلى عجوز ترتدي ثيابا نظيفة ، ويحف بوجهها الاسمر شعر أبيض بلون الفضة . ودخل في اثرها رجل كهل يتبعها ، ووراء الرجل خادمة تطل براسها من فوق كتفه .

فهرعت الفتاة الى لقائهم . وقالت وهي تقبل السيدة بحركة عصبية :

ـ انقذ يا ماما ... انه حي يا ماما ...

فقالت السيدة :

ـ ولكن ما الذي وقع له ؟ لقد كنت عائدة الى البيت فرأيت لويزا ومعها الطبيب .

وبينما كانت الفتاة تقص على امها كل ما وقع ، اقترب الطبيب من المريض الذي كان يصحو ويبتسم . كان المريض كأنه يشعر بخجل مما سبب لهؤلاء الناس جميعا من عناء .

قال الطبيب متجها بالكلام الى سانين وبانتاليون :

ـ اري أنكم دلكتم جسمه بفرشاة ... لقد احسنتم صنعا ... انها فكرة ممتازة ... وسنرى الآن ما الذي نستطيع ان نصفه له أيضا .

قال ذلك واخذ يجس نبض الفتى .

ـ هه ... أرني لسانك !

انحنت الام على المريض مهمومة قلقة ، فابتسم لها الفتى ابتسامة واضحة ، وشخص بعينيه اليها ، واحمر وجهه ...

ورأى سانين ان وجوده أصبح زائدا ، فأراد أن ينصرف ، ولكن

ما ان وضع يده على مقبض باب الدخول حتى راى الفتاة تنتصب امامه وتستوقفه . قائله :

ــ اتتركنا ؟ انني لا احتجزك ، ولكنك ستعود الينا فى المساء ، أليس كذلك ؟ ان لك علينا حقوقا . فلعلك انت الذى انقذت اخى من الموت . نريد أن نشكر لك ما أسديت الينا من يد . وأمى تحرص على أن تعبر لك بنفسها عن امتنانها ... يجب أن تذكر لنا اسمك ، وان تعود الينا لتشاركنا فرحنا .

فاعترض سانين يقول :

ــ ولكننى مسافر هذا المساء .

فقالت الفتاه بحراره :

ــ في الوقت متسع . عد الينا بعد ساعة ، فتتناول معنا كأسا من الشيكولاته . هل تعدنى بذلك ؟ ... يجب أن أعود الى المريض حالا ... أننا نعتمد عليك !

ماذا كان يستطيع ان يفعل ؟

قال :

ــ سأجيء .

فصافحته الفتاة بقوة ، وهرعت تدرك أخاها .

وراى سانين نفسه فى الشارع .

حين عاد سانين بعد ساعة ونصف ساعة الى دكان روزيلي ، استقبل كما يستقبل قريب من الاقرباء .

كان ايمليو جالسا على الاريكة التى كان راقدا عليها فى الصباح ، حين دلك له جسمه . وكان الطبيب قد أمر له بدواء ، ونصح بكثير من الحيطة فى معاملته ، وقال « ان عليه أن يتجنب الانفعالات ، لان الفتي عصبي وبه استعداد للاصابة بأمراض القلب » .

لقد سبق أن اغمي على ايمليو قبل ذلك ، ولكن نوبة الاغماء لم تبلغ يوما ما بلغته هذه المرة من طول وعنف . وقد أكد الطبيب مع ذلك أن كل خطر قد زال .

كان ايمليو يرتدي ثوبا فضفاضا كما يليق بمريض فى دور النقاهة ، وقد أحاطت أمه رقبته بمنديل أزرق من صوف . وكان الفتى مرحا ، حتى لكأنه فى عيد ، وكان كل ما حوله يشع فرحا .

وامام الاريكة ، على مائدة مستديرة مفروشة بغطاء أبيض ، وضع ابريق كبير من الخزف ، مليء بالشيكولاتة العبقة ، وصفت من حوله فناجين وأقداح وفطائر وقطع من الخبز ، وحتى ازهار . وكان فى الغرفة ست شموع تحترق على شمعدانين من قديم الفضة . وكان الىجانب الاريكة مقعد لين من طراز فولتير ، هو الذى دعى سانين لان يجلس عليه حين دخل .

ان جميع الاشخاص الذين تعرفاليهم سانين فى المقهى عند الصباح قد اجتمعوا الان حول المريض ، لا يستثنى منهم الكلب تارتاجليا ولا الهرة . وكانت السعادة واضحة فى وجوههم جميعا . ان الكلب يشخر من سعادة ، والقطة لا تزال تفتح وتطرف عينيها .

واضطر سانين أن يتهجى اسمه ، وان يقول من اين هو ، وأن يتحدث عن أسرته . فلما ذكر انه روسى ، ظهرت الدهشة فى نظراتهما قليلا ، حتى لقد أفلتت منهما صيحة : « آه » ، وقالتا انه يجيد الكلام بالالمانية ، ولكنهما دعتاه الى الاستمرار فى الكلام بالفرنسية اذا كان يروقه ذلك ، لانهما كلتيهما تفهمان الفرنسية .. وتتحدثان بها .

واسرع سانين الى الاستفادة من هذا الاقتراح اللطيف ..

« سانين ؛ سانين » ... ما كان لهاتين السيدتين أن تصدقا أن في وسع روسي أن يكون اسمه سهلا على اللفظ الى هذه الدرجة من السهولة . وأعجبهما اسمه الاول كذلك اعجابا كبيرا ، وهو ديمتري .

واسرعت أم الفتاة تقول انها في شبابها قد شهدت أوبرا عنوانها « ديمتريو وفيليو » ، ولكنها ترى الآن أن ديمتري أجمل وقعا في الاذن من « ديمتريو » .

وقضى سانين على هذه الحال ساعة كاملة يتحدث مع هاتين الايطاليتين اللتين افضيتا اليه أيضا بجميع أحداث حياتهما .

كانت الام هي التي تتكلم خاصة . فعرف سانين منها اسمها ، وهو ليونورا روزيلي ، وعرف أنها ارملة جيوفاني باتيستا روزيلي الذي جاء الى فرنكفورت منذ خمس وعشرين سنة وفتح فيها هذا الدكان . ان جيوفاني باتيستا هو في الاصل من مدينة فيسانس . ولقد كان رجلا ممتازا ، رغم انه كان نزقا متكبرا ، ورغم انه كان فوق ذلك جمهوريا !

حين قالت مدام روزيلي هذا الكلام أشارت بيدها الى لوحة زيتية معلقة بالحائط فوق الاريكة .

— يجب أن اذكر ان الرسام — وهو جمهوري أيضا — لم يدرك الشبه ادراكا تاما ..

ذلك أن ملامح جيوفاني باتيستا كانت تظهر في الصورة كأنها ملامح شقي عابس كاسر من قطاع الطرق !

لقد ولدت مدام روزيلي في تلك المدينة القديمة الجميلة ؛ مدينة باري ، التي تضم تلك القبة الرائعة . القبة التي طلتها ريشة الرسام الخالد كوريج ،ولكن مدام روزيلي قد قضت شطرا كبيرا من حياتها في المانيا ، حتى كادت تصبح المانية .

وأضافت مدام روزيلي الى هذا ، وهي تهز رأسها في حزن ، انها لم يبق لها في الحياة الا هذه البنت وهذا الابن (قالت ذلك وهي تدل عليهما باصبعها) ، ثم ذكرت أن اسم ابنتها هو جيما ، وان اسم ابنها هو ايميليو ، وأنهما كليهما ولدان ممتازان مطيعان ، وخاصة ايميليو ...

— وأنا ، ألست مطيعة ؟

هكذا قاطعت جيما أمها ، فأجابتها الام بقولها :

— آ... أنت جمهورية أيضا !

وصرحت مدام روزيلي في الختام بأنها تكسب رزقها طبعا ، ولكن

الاعمال لا تسير الان سيرا حسنا كما كانت فى عهد زوجها الذى كان فنانا كبيرا فى صناعة الحلوى .

فثنى يانتاليون على قولها بلهجة جادة ، ولغة ايطالية :

ـ كان رجلا عظيما .

— ٥ —

كانت جيما وهي تصغى الى حديث أمها تضحك تارة ، وتتنهد تارة أخرى ، وتدغدغ كتف أمها تارة ثالثة ، وتلوح لها باصبعها مهددة تارة رابعة ، وتنظر اليها بعد كل ذلك . ونهضت أخيرا ، فاحتضنت امها بذراعيها ،وقبلتها في نقرتها عند منبت الشعر ، فأثار هذا ضحك الام حتى أخذت تطلق صرخات مرتاعة .

ولقد قدم بانتاليون الى الفتى الروسى أيضا .

كان بانتاليون فى سالف الزمن مغنيا في الاوبرا ، ولكنه ختم حياته الفنية منذ مدة طويلة ، وأصبح يحتل فى أسرة روزيلي مكانا خاصا ، فهو صديق الاسرة وخادمها معا ، بل هو بين الصديق والخادم . ورغم أنه مقيم بألمانيا منذ عدد من السنين ، فانه لم يتعلم من الالمانية الا الشتائم ، حتى أن شتائمه نفسها كانت تفوح منها رائحة اللغة الايطالية . وكان يقول عن جميع الالمان تقريبا انهم أوغاد مناحيس (باللغة الايطالية) .

ولكنه كان ، في مقابل ذلك ، يجيد الكلام بالايطالية

ذلك أنه من مدينة سينيجاجليا التى تستطيع أن تسمع فيها « اللسان التوسكاني من فم روماني » .

وكان أيمليو متكاسلا ، مستسلما للاحساسات الممتعة التى يحسها ناقه أفلت من خطر كبير . وكان يسهل على المرء أن يلاحظ من جهة أخرى أن ذويه يحيطونه بجميع ألوان الدلال والرعاية .

وقد أزجى الشكر لسانين خجلا مضطربا ، ولكن انتباهه كان منصبا على الاشربة والحلوى خاصة .

واضطر سانين أن يحتسى قدحين كبيرين من طيب الشيكولاته ، وأن يأكل مقدارا ضخما من البسكويت ، ذلك أنه كان لا يكاد يفرغ من أكل قرص من أقراص البسكويت حتى تقدم اليه جيما قرصا آخر .. وهل كان بوسعه أن يرفض ؟

وما انقضت لحظات قليلة حتى أحس سانين أنه بين أفراد هذه الاسرة كأنه في بيته ... وطار الوقت سريعا سرعة لا تصدق ...

تحدث سانين كثيرا عن روسيا ، وعن مناخها، وعن المجتمع الروسى

وعن الفلاح الروسي ، وعن القوازق خاصة ، وعن حرب ١٨١٢ ، وعن بطرس الاكبر ، وعن الاغاني الروسية والاجراس الروسية .

وكانت المرأتان لاتملكان الا فكرة غامضة عن هذه البلاد التي ولد فيها سانين . فما كان أشد دهشته حين توجهت اليه السيدة روزيلي أو السيدة لينور كما كانوا يدعونها في أكثر الاحيان ، بهذا السؤال:

- ألا يزال القصر الذي بني في بطرسبرج ، من جليد ، في القرن الماضي ، والذي قرأت منذ مدة قريبة وصفا له في كتاب عنوانه « روائع الفن » ، ألا يزال هذا القصر قائما الى الآن ؟

فما كان من سانين الا أن هتف دهشا :

- ولكن هل تظنين ياسيدتي أن الصيف لا وجود له في روسيا ؟

فاعترفت له السيدة روزيلي بأنها لا تتصور روسيا الا سهلا تغطيه ثلوج دائمة ، ويسكنه أناس يلبسون الفراء طوال العام . وهم جميعا عسكريون . وأضافت تقول : والحق أن هذه البلاد هي أكثر بلاد الدنيا كرما وضيافة ، وأنها البلاد الوحيدة التي يتصف فيها الفلاحون بالولاء والطاعة .

فحاول سانين أن يعطيها وأن يعطي ابنتها معلومات أدق عن روسيا . حتى اذا تحدث عن الموسيقى رجته هي وابنتها أن يغنى لهما لحنا روسيا ، ودلتاه على بيانو صغير في ركن من أركان الحجرة . كانت الاصابع البارزة من البيانو بيضاء ، والاصابع المنخفضة منه سوداء . فلبى سانين رجاءهما في غير كلفة ، فقام الى البيانو ، وأخذ يعزف عليه بأصبعين من اليد اليمنى وبثلاث أصابع من اليد اليسرى (هي الابهام والوسطى والخنصر) ، وغنى لهما «السارفان» أولا ، ثم « في الشارع ، على البلاط » ، بصوت هو التينور يخرج من الانف قليلا .

فامتدحت المرأتان صوته وعزفه كثيرا ، ولكنهما انتشتا خاصة من عذوبة اللغة الروسية ورنينها ، ورجتاه أن يترجم لهما الاغنيتين . ولكن سانين رأى أن شعر هاتين الاغنيتين لا يعطى فكرة عالية جدا عن الشعر الروسي ، فآثر أن ينشدهما قصيدة بوشكين الغزلية : « ذكرى لحظة الهية » ، فترجم لهما هذه القصيدة وغناها، وكان اللحن من ألحان جلنكا .

فاذا بحماسة السيدة روزيلي وابنتها تتجاوز كل حد . واكتشفت السيدة لينور شبها مدهشا بين الروسية والايطالية . حتى لقد وجدت ان اسمي بوشكين (وكانت تلفظه بوسكين) وجلنكا يرنان

فى الاذن رنين الاسماء الايطالية .

وطلب سبانين من الام وابنتها أن تغنيا له شيئا ، فلم تحوجاه الى الرجاء ، بل قامت الام الى البيانو فورا، وغنت مع جيما بعض الاغانى لاشك أن صوت الام كان فيما مضى رائعا . أما صوت جيما فهو ضعيف ولكنه جميل .

— ٦ —

ان ماأعجب به سانين هو جيما لا صوتها ٠

كان ، وهو جالس وراءها قليلا الى جانب ، يقول : لنفسه : ان شجرة من أشجار النخيل لا يمكن أن تنافس رشاقة هذه الصبية الايطالية ٠ وكان يخيل اليه حين ترفع عينيها أثناء صداحها بالنقرات المعبرة من الاغنية أن السماء تنفتح أمام هذه النظرة ٠

أن العجوز بانتاليون نفسه الذى كان يصغى الى الغناء اصغاء خبير ، وقد لاح فى وجهه الجد ، واستند بكتفه الى مصراع الباب ، ودفن ذقنه وفمه فى ربطة عنقه الطويلة ، كان يبدو مفتونا بهذا الوجه الجميل ، رغم أنه يراه كل يوم ٠

فلما انتهى الغناء قالت السيدة لينور ان ايميليو كان له صوت جميل جدا ، كأنه رنين الفضة ، ولكنه الآن فى السن التى يخشن فيها الصوت ، فهو ممنوع عن الغناء . ثم جاء دور بانتاليون ، فكان عليه ، تكريما للضيف ، أن يتذكر بعض الالحان التى كان يجيد غناءها فى الماضى أيما اجادة ٠

فاستعد بانتاليون للغناء ، وتنحنح ، وعبث بشعره ، وقال انه هجر الغناء منذ سنين ، رغم أنه كان يستطيع فى وقت مضى أن يفخر بموهبته ٠ وأضاف الى ذلك أنه ينتمى الى ذلك العصر الذى كان فيه مغنون كلاسيكيون كبار ، لايقاس بهم هؤلاء الموعوعون الذين نسمعهم فى أيامنا هذه ، وأن ذلك العصر قد عرف ما يمكن أن يسمى مدرسة فى الغناء ،و أنه هو ، بانتاليون تشسيباتولا ، قد توج فى فاريز يوما باكليل من الغار ، وأطلق الناس فى تكريمه على المسرح حمامات بيضاء ، وأن أميرا هو الامير تاربوسكى الذى كان بينه وبينه صداقة حميمة كان يعذبه كل مساء بالحاحه على أن يقوم بجولة فى روسيا يجنى منها جبالا من ذهب ، جبالا من ذهب ! ... ولكن بانتاليون كان حريصا أشد الحرص على الا يترك ايطاليا ، بلد دانتى ! ...

ثم جاءت المصائب ... لقد كان بانتاليون قليل التبصر ... هنا قطع العجوز حديثه ، وزفر زفرتين عميقتين ، وخفض عينيه ، ثم عاد يتحدث عن العصر الكلاسيكى فى الغناء ، وخاصة عن جارسيا ،

التينور الشهير ، الذى كان بانتاليون يمحضه اعجابا ليس له جدود.
- ذلك رجل !
بهذا هتف بانتاليون ، ثم أضاف يقول :
- ان جارسيا العظيم لم يرض لنفسه يوما أن يغنى كما يغني هؤلاء المغنون الصغار الذين نسمعهم اليوم ... كان صوته يخرج دائما من الصدر .

قال العجوز ذلك وضرب صدره ضربة قوية بقبضة يده .
- وما كان أعظمه من ممثل ! كان كالبركان ، كالبركان ، يا الهى . كان كفيزوف . ولقد شرفت بالاشتراك معه في تمثيل الاوبرا التى ألفها الاستاذ العظيم روسيني ... أوبرا « عطيل » ... كان جارسيا يمثل دور عطيل ، وكنت أنا أمثل دور ياجو ... فكان حين يلفظ هذه الجملة :
(هنا اصطنع بانتاليون وضع المغنى ، وأخذ يغني بيتين من شعر « عطيل » بالايطالية ، بصوت مرتعش أبح ، ولكنه مؤثر) ...

... كان المسرح يهتز تحته ... يا الهى ... وكنت أنا لا أقصر عنه كنت أردد بعده :
(وهنا غني بيتين آخرين من أبيات « عطيل » ، بالايطالية) ...
... وفجأة ، بسرعة البرق ، كنمر كاسر، كان يقول : الانتقام ... الانتقام ...
... أو حين كان يغني ... حين كان يغني اللحن المشهور «الزواج السرى » ... ياله من رجل عظيم ... جارسيا ... اسمعوا كيف كان يغني ... اسمعوا كم كان غناؤه رائعا .

واخذ العجوز يغني مقطعا معقدا جدا ... ولكنه ما أن وصل الى النغمة العاشرة حتى توقف عن الغناء ، وسعل ، ثم قال وهو يحرك يده حركة تعبر عن اليأس :

- لماذا تعذبونني هذا التعذيب ؟
فصفقت جيما تصفيقا قويا وهى تصيح : مرحى ! مرحى ! ثم أسرعت الى « ياجو » المسكين ، وربتت على كتفه بكلتا يديها متوددة.

كان ايميليو وحده يضحك بلا تحرج . ان هذه السن لا تعرف الرحمة . هكذا قال لافونتين
وأراد سانين أن يواسى المغنى العجوز ، فحاول أن يكلمه بلغته الايطالية . كان سانين قد تعلم بضع كلمات ايطالية أثناء رحلته

الاخيرة الى ايطاليا . فأخذ يتحدث عن « بلد دانتي التي يجيد فيها المغنون الغناء » (قالها بالايطالية) • وكانت تلك الجملة ، وهذا البيت المشهور من أبيات الشعر : « قد فقـدت الامال والافراحا » كل ما يملك السائح الفتى من زاد شعري ايطالي .

ولكن باتاليون لم يكترث لهذه الملاطفات ، بل اغرق ذقنه في ربطة عنقه ، وأخذت عيناه الحانيتان تدوران ، فأصبح وجهه يشـبه وجه الطائر الاشعث أكثر من أي وقت مضى ، ولكنه يشبه في هـذه المرة وجه طائر خبيث ، وجه غراب أو بغاث .

وعندئذ قال ايمليو ، الذي كان يتخضب وجهه بالحمرة في كل مناسبة لغير ما سبب ، كما يقع هذا للأطفال المدللين ، قال لأخته : اذا كنت تريدين أن تسلي الضيف حقا ، فما عليك الا أن تقرئي له ملهاة من ملاهي مالتس التي تجيدين قراءتها أيما اجادة ، فلا شيء خيرا من هذا .

فانفجرت جيما ضاحكة ، ولطمت يد أخيها لطمة صغيرة ، وقالت له : « ان لك افكارا عجيبة دائما » • ومع ذلك لم تلبث أن قامت الى غرفتها ، ثم عادت بعد قليل وفي يدها كتاب صغير . وجلست الى المنضدة امام المصباح ، ونظرت حولها ، ورفعت اصبعها كأنها تقول : « صمتا أيها السادة » (وتلك حركة ايطالية جدا) ، وأخذت تقرأ بصوت عال .

ـ ٧ ـ

مالتز كاتب محلى اجاد تصوير نماذج انسانية من فرنكفورت ، بفكاهة حية ولو على غير عمق ، وذلك فى كوميديات خفيفة ، كتبها باللهجة العامية .

والحق أن جيما تجيد القراءة اجادة رائعة ، حتى لكأنها ممثلة كوميدية بارعة . فكانت تلون كل دور بلونه ، وتبرز طبع الشخصيات ابرازا مدهشا . لقد ورثت مع دمها الايطالى ما يملكه هذا الشعب من قدرة على التعبير بحركات الوجه . وكانت تستعمل صوتها العذب وملامح وجهها فى آن واحد ، فاذا كان عليها ان تمثل عجوزا مجنونة أو عمدة غبيا صعرت خدها ، وشددت عينيها ، ونفخت منخريها ، وجعلت صوتها يعوى ، واخرجت الراء من حلقها .

وكانت لا تضحك وهى تقرأ ، حتى اذا فاجأها سامعوها ـ عدا بانتاليون الذى خرج من الفرفة منذ تقررت قراءة هذه الاشياء التافهة ـ بانفجار فى الضحك ، تركت كتابها ينزلق على ركبتيها ، وردت راسها الى وراء ، واخذت تطلق ضحكات رنانة كانت تهز قرطيها اللينين على جيدها وعلى كتفها .

فاذا هدأ ضحك السامعين عادت فتناولت كتابها ، واستأنفت قراءتها مرة أخرى فى جد .

كان سانين لا يشبع من الاعجاب بهذه القارئة البارعة ، وكان يتساءل كيف يستطيع هذا الوجه الذى بلغ هذا المبلغ من الجمال أن يتبدل راسا فيصطنع تعبيرا يصل الى هذه الدرجة من الهزل ، بل ومن الابتذال فى بعض الاحيان .

وكانت جيما لا تنجح هذا النجاح كله فى أدوار الفتيات ، فى أدوار « الفتاة الاولى » ، وفى مشاهد الحب خاصة . فكانت تخفى تقصيرها تحت قناع من السخرية الخفيفة ، كأنها لا تؤمن بهذه الوعود العاطفية ، وبهذه الكلمات الملتهبة ، التى كان المؤلف يقتصد فيها على كل حال .

وانقضت السهرة سريعة ، حتى ان سانين لم يتذكر انه كان عليه ان يسافر فى ذلك المساء نفسه الا حين دقت الساعة العاشرة .

فقفز عن كرسيه كمن لسعته أفعى . فقالت له السيدة لينور :
ــ ماذا بك ؟
فأجاب :
ــ على أن اسافر هذا المساء الى برلين ، وقد حجزت مكانا فى العربة .
ــ متى تتحرك العربة ؟
ــ فى العاشرة والنصف .
قالت جيما :
ــ ستصل اذن بعد فوات الأوان ... فابق بعض الوقت ، وسأتم قراءتى ...
وسألت فراو اينور :
ــ هل دفعت ثمن التذكرة كاملا او دفعت عربونا فحسب ؟
ــ بل دفعت ثمن التذكرة كاملا .
قال سانين ذلك وقد تصعر وجهه بألم .
فنظرت اليه جيما وهي تطرف عينيها ، واطلقت من صدرها ضحكة ، فأنبتها أمها قائلة :
ــ ما هذا ؟ أيضيع الفتى ماله سدى ثم تضحكين أنت ؟
فقالت جيما :
ــ ليس لهذا كبير شأن . ان هذا المبلغ الذى يضيع لن يدمر السيد سانين ... وسنحاول أن نواسيه ... هل لك بكأس من عصير الليمون ؟
شرب سانين كأسا من عصير الليمون . واستأنفت جيما قراءتها ، وعاد المرح الى الحفل .
فلما انتصف الليل نهض سانين ليمضى . فقالت له جيما :
ــ عليك الآن أن تبقى بضعة أيام فى فرنكفورت ، فعلام الاسراع فى الذهاب ؟ .. ستأنس هنا مثلما تأنس فى أى مكان آخر ...
وصمتت ، ثم قالت مبتسمة :
ــ أؤكد لك انك ستانس هنا اكثر مما تانس فى اى مكان آخر .
لم يجب سانين بشيء ، ولكنه تذكر أن محفظته خاوية ، وأن عليه أن يبقى فى فرنكفورت ينتظر جواب صديق له من برلين يمكن أن يقترض منه بعض المال .
قالت فراو لينور ، بدورها :

ـ ابق معنا فترة من الوقت ... وستتعرف الى السيد شارل كلوبر ، خطيب جيما . انه لم يستطع ان يجيء هذا المساء ، لانه مشغول بأعمال كثيرة فى مخزنه . هل لاحظت عند « الزايل » ذلك المخزن الكبير الذى يبيع انواع الصوف والحرير ؟ ان السيد كوبر هو مدير البائعين فى ذلك المخزن . وسيسعده كثيرا أن يعرفك .

ان سانين لم يفهم ، هو نفسه ، لماذا صعقه هذا النبأ ! وقال بينه وبين نفسه :

ـ ياله من خطيب سعيد !

ونظر الى جيما ، فلاح له فى عيني الفتاة تعبير ساخر .

واستأذن مدام روزيلي وابنتها بالانصراف .

سألته فراو لينور قائلة :

ـ الى الغد ، أليس كذلك ؟ ستأتي غدا ، اليس كذلك ؟ ..

ورددت جيما تقول بلهجة التأكيد ، كأن ذلك أمر مفروغ منه :

ـ الى الغد !

فاجاب سانين :

ـ الى الغد .

ورافقه ايمليو وبانتاليون والكلب تارتاجليا حتى وصل الى ركن الشارع . ولم يستطع بانتاليون ان يحبس نفسه عن اظهار استيائه من قراءة جيما ، فقال :

ـ كيف لا تخجل ! كيف لا تستحى أن تتلوى هذا التلوى وان تصرخ هذا الصراخ ، كأنها كاريكاتور ! كان ينبغي لها أن تمثل دور فيروب أو دور كليتمنستر ، أو دور أية شخصية تراجيدية عظيمة ... ولكنها تؤثر على ذلك أن تمثل دور المانية سخيفة ! كل الناس يستطيعون ان يفعلوا هذا ... ميرتز ، كرتز ، شبرتز ...

نطق هذه الاسماء بصوته الأبح وهو يقدم ذقنه ويطقطق اصابعه.

فعوى عليه تارتاجليا ، بينما كان ايمليو يضحك ..

واستدار العجوز فجأة ، وعاد أدراجه .

رجع سانين الى فندق «البجعة البيضاء» مضطربا بعض الاضطراب ان كل هذا الحديث الايطالى الفرنسى الالمانى لا يزال يهمهم فى أذنيه .

قال لنفسه حين رقد فى غرفته المتواضعة من ذلك الفندق :

ـ هي اذن مخطوبة ! يالها من فتاة رائعة ! ولكن لماذا لم أسافر ؟

ومع ذلك ، أرسل فى الغداة رسالة الى صديقه ببرلين .

قبل أن يفرغ سانين من اتمام زينته أتاه جرسون الفندق ينبئه أن سيدين قد جاءا يزورانه .

ان أحدهما هو ايميليو ، والثاني هو شاب فارع القامة ، أنيق الهندام ، مصفف الشعر . انه السيد كارل كلوبر ، خطيب الجميلة جيما .

يقيني أنك لو بحثت فى فرنكفورت من أقصاها الى أقصاها ، فى ذلك الوقت ، عن مدير للبيع يفوق السيد كلوبر أدبا ، وحسن مظهر ، وكمال رصانة ، وحلاوة منظر ، لما وجدت .

أن هندامه الجميل المنسجم مع رزانته ، وان لطف حركاته التى لا تخلو ، والحق يقال ، من شىء من التحفظ والفتور ، على ما يعهد فى الانجليز ، (لقد أقام فى انجلترا سنتين) ان ذلك كله يضفى عليه رشاقة فاتنة واناقة أخاذة .

ويدرك المرء فورا أن هذا الفتى الجميل ، الرصين ، المهذب ، المزين ، قد تعود على أن يطيع اوامر من هم فوقه ، وعلى أن يصدر الاوامر الى من هم دونه ، وأنه لا بد أن يكون وراء بسطة المخزن بائعا يوحى الى الزبائن بالاحترام .

أما أمانته الدقيقة فلا يمكن ان يشك أحد فيها . وحسبك حتى تقتنع بها ان تلقى نظرة على أكمام قميصه المنشاة ! وكان صوته ينسجم مع جملة كيانه : صوت عريض هادىء لين ، ولكنه غير مرتفع ، بل ان لجرسه تثنيات حلوة . أنه بعينه الصوت الذى يناسب اصدار أوامر من هذا القبيل الى العمال : « أر السيدة مخمل ليون » ، « هات كرسيا للسيدة ! .. »

بدأ السيد كلوبر بتقديم نفسه لسانين ، وفقا لجميع الاصول والقواعد المتبعة ، فقد حنى قامته فى كثير من الرفعة والنبالة ، وقرب ما بين ساقيه فى رشاقة ، وضم كعبى حذاءيه احدهما الى الاخر فى أدب بالغ من الرقة والفتنة .. أن المرء لا يسعه ازاء ذلك كله الا أن يهتف قائلا بينه وبين نفسه : « يا لهذا الفتى ! ما أجمل ملابسه وما ارفع مزاياه ! » .

وكانت اناقة يده اليمنى المخلوع قفازها (كانت يده اليسرى اللابسة قفازا من السويد تمسك بقبعته الملساء كأنها مرآة ، وفى داخلها القفاز الاخر) أقول كانت أناقة يده اليمني هذه التى مدها إلى سانين فى تواضع ، ولكن فى حزم وقوة ، تفوق كل مديح : ان كل ظفر من أظافرها أثر فنى قائم بذاته ٠

وقال السيد كلوبر ، بلغة المانية منتقاة ، انه جاء يقدم احترامه ويعبر عن شكره للسيد الغريب الذى أسدى الى قريبه المقبل ، الى اخي خطيبته ، خدمة عظيمة .

قال هذا الكلام وهو يشير بيده اليسرى الى ايمليو الذى احمر وجهه من خجل فيما يظهر ، واستدار الى جهة النافذة ووضع اصبعه في فمه .

وأضاف السيد كلوبر الى ذلك قوله : انه ليسعده ان يستطيع ارضاء السيد الغريب فيما يسره .

فأجاب سانين فى شيء من الصعوبة والتعثر ، باللغة الالمانية : انه سعيد جدا ... وان الخدمة التى قدمها ليس لها شأن يذكر ... ودعا ضيفيه الى الجلوس .

فشكر له السيد كلوبر تلطفه ، ثم رفع أطراف ردنجوته برشاقة ، وجلس على احد الكراسى ، ولكنه لم يجلس جلسة مريحة ، بل استند الى المقعد بطرف جسمه ، فكان واضحا من ذلك أنه لم يجلس الا من قبيل التأدب ، وانه يهم ان ينهض بعد دقيقة .

والواقع أنه لم يلبث أن قام ، فخطا خطوتين الى وراء فى تواضع ، كما يفعل الراقص حين يتقهقر الى خلف ، وقال انه لا يستطيع أن يطيل زيارته ، وان ذلك يؤسفه كثيرا ، لان موعد الذهاب الىالمتجر قد حان ... والعمل قبل كل شيء ! .. واضاف أنه قد أعد ، بالاتفاق مع السيدة ليونور والانسة جيما ، وذلك لأن غدا يوم الاحد ، نزهة فى « سودن » ، وأنه يسعده أن يدعو السيد الغريب الى الانضمام اليه فى هذه النزهة ، وانه يأمل الا يرفض السيد سانين تزيين هذه النزهة بحضوره .

فوافق سانين على تزيين النزهة بحضوره . فعاد السيد كلوبر فحيا سانين مرة ثانية وفقا لقواعد الادب ، ثم انسحب فى رشاقة مع سرواله الذى هو بلون البسلة الخضراء ، قارعا نعليه أحدهما بالآخر قرعا جميلا ٠

— ٩ —

ظل ايمليو واقفا ، رغم ان سانين كان يدعوه الى الجلوس ، وكان ملتفتا نحو النافذة ، فلما ذهب صهره جعل يدور على كعبيه ، ويصعر وجهه كما يفعل الاطفال ، وسأل سانين أن يأذن له بالبقاء ، وقد احمر وجهه من الخجل . وأضاف يقول :

ـ لقد تحسنت صحتى اليوم كثيرا ، ولكن الطبيب لا يزال يمنعنى من العمل .

فأسرع سانين يقول له :

ـ ابق معي . . . انك لا تزعجنى البتة .

والحق أن سانين قد سره كثيرا ، من حيث هو روسى ، أن يجد ذريعة تعفيه من أن يعمل شيئا .

فشكره ايمليو ، وما هى الا دقائق حتى كان الفتى يشعر ، وهو فى غرفة سانين ، انه فى بيته . فأخذ يفحص جميع أشياء المسافر الغريب ، ويسأله عن كل منها ما مصدره وما نوعه . وساعده على حلاقة ذقنه ، وحمله على ترك شاربيه . وأكثر من الكلام ، فأفضى الى صديقه الجديد بتفاصيل كثيرة عن أمه ، واخته ، وبانتاليون ، وحتي عن الكلب تارتاجليا ، ووصف له على الجملة حياتهم جميعا .

وزال كل أثر من آثار الخجل فى ايمليو ، فكان يشعر بحب شديد نحو سانين ، لا لأن الشاب الروسي قد انقذ حياته فى الليلة البارحة ، بل لانه كان مفتتنا به أشد الافتتان . فكان يحس بدافع قوى يدفعه الى البوح بأسراره لصديقه الجديد .

فاعترف له بأن أمه تعده للتجارة ، مع أنه يعلم حق العلم انه خلق ليكون فنانا ، ليكون موسيقيا ، ليكون مغنيا ، وانه مؤهل بمواهبه للمسرح . أما الدليل على ذلك فهو أن بانتاليون يشجعه على اتباع هذا الطريق . ومما يؤسفه أن السيد كلوبر يرى رأى أمه ، أن له على أمه سلطانا قويا . فهو الذى أوحى الى السيدة روزيلي أن تدخل ابنها فى التجارة ، لانه ، وهو البائع ، لا يرى شيئا اجمل من التجارة . فأن يبيع المرء صدفا وقطيفة ، وأن يخدع الزبون ، أن يطلب منه « أسعار بلهاء » ، « أسعار روسى » ، فذلك

هو المثل الاعلى عند السيد كلوبر !

فما أن انتهى سانين من زينته ، ومن كتابة رسالته الى صديقه ببرلين حتى هتف ايمليو يقول :

ــ والان تجيء الينا ، اليس كذلك ؟

فقال سانين معترضا :

ما يقوم احد بزيارة فى مثل هذا الوقت المبكر .

فهتف ايمليو يقول بلهجة مدللة :

ــ بل لا بأس فى هذا . تعال معى . نذهب اولا الى البريد ثم نعود الى بيتنا ! جيما سيسرها هذا كثيرا ! ستفطر معنا . . . وستستطيع ان تقول لأمى كلمة عنى .. بصدد ما أريد أن أقف عليه نفسى من عمل فنى . . .

قال سانين :

ــ طيب . فلنذهب .

وخرجا من الفندق معا .

سرت جيما كثيرا من رؤية سانين مرة أخرى، واستقبلته السيدة ليونور بكثير من المودة والترحيب . فكان واضحا انه ترك فى نفس المراتين كلتيهما اثرا طيبا فى الليلة البارحة . وأسرع ايميليو يوصى باحضار طعام الفطور ، بعد أن ذكر سانين مرة ثانية بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وهو أن يدافع عن قضيته امام أمه . فقال سانين للفتى :

ـ لن انسى ذلك . اطمئن .

لم تكن صحة السيدة ليونور حسنة ، بل كانت تشكو من صداع فى رأسها ، وكانت مستلقية على المقعد نصف استلقاء ، تحاول الا تتحرك .

كانت جيما ترتدى قميصا أصفر واسعا يشده حزام من جلد أسود . وكان يبدو عليها انها متعبة قليلا هى الاخرى . ان بها شيئا من شحوب ، وان عينيها تحف بهما هالتان سوداوان . ولكن الهالتين السوداوين لا تحرمان العينين من بريقهما ، والشحوب الخفيف يضيف الى الملامح القاسية فى وجه الصبية الايطالية سحرا خفيا .

ومما خطف بصر سانين فى هذه المرة خاصة جمال يدى الفتاة . فحين كانت تعدل أو ترفع قرطيها الأسودين اللامعين ، كان سانين لا يستطيع ان ينتزع نظراته من هذه الاصابع اللينة الطويلة المتباعدة كأصابع فورنارين التى صورها رافائيل .

وكان الجو حارا جدا فى الخارج . فلما فرغوا من الطعام أراد سانين أن يمضى ، ولكن أصحاب المنزل قالوا له أن من الخير للمرء الا يتحرك من مكانه فى مثل هـذا الجو الحار . فبقى ولم يذهب .

كان الجو فى الصالون الخلفى الذى جلس فيه سانين مع أسرة روزيلى طريا رطبا ممتعا ، فالنوافذ تطل على حديقة صغيرة زرعت بأشجار الأكاسيا . كان النحل يدندن أسرابا سكرى بين اغصان الاشجار الكثيفة ذات الازهار الذهبية . وكانت هذه الدندنة التى لا تنقطع تنفذ الى الغرفة من خلال المصاريع المشقوقة والستائر

المسدلة ، كأنها ضوضاء الحرارة فى الخارج ، فكانت طراوة الغرفة المغلقة المريحة تبدو من ذلك أجمل وامتع ...

تكلم سانين كثيرا ، كالليلة البارحة ، ولكن حديثه لم يدر فى هذه المرة على روسيا ولا على الحياة الروسية . ذلك أنه ، وقد اراد ان يخدم صديقه الفتى الذى أرسل بعد الفطور الى السيد كلوبر ليتعلم فن مسك الدفاتر ، قد أدار الحديث على ما لكل من التجارة والفن من مزايا . ولم يدهشه ان يرى أن السيدة ليونور تؤثر التجارة على الفن ، فذلك امر كان يتوقعه ، ولكن الذى أدهشه هو أن جيما تشارك أمها الرأى .

قالت الفتاة وهى ترفع يدها بحركة عنيفة :

ـ من أراد أن يصبح فنانا ، وموسيقيا بوجه خاص ، فعليه أن يحتل المنزلة الاولى ... أما ان يكون فى المقام الثانى ، فذلك لا قيمة له .. وكيف يعرف المرء أنه قادر على أن يحتل المكان الاول ؟

واشترك بانتاليون فى الحديث ، فأعلن انه من انصــار الفن . وكانت أدلته ضعيفة والحق يقال : فقد ذهب الى أن اهم شىء هو أن يملك المرء دفقة الهام .

فقالت السيدة ليونور :

ـ لا شك أن بانتاليون كان يملك هذه الدفقة ، ومع ذلك ...

فأجاب بانتاليون يقول بلهجة حزينة :

ـ لقد كان لى أعداء كثيرون .

ـ وكيف تستطيع أن تعرف أن أيمليو لن يكون له اعداء ، مع انه يملك هذه الدفقة ...

فقال بانتاليون فى حسـرة :

ـ فاجعلى منه تاجرا اذن . ولكننى أؤكد لك ان جيو فانى باتيستا ما كان له أن يفعل هذا لو كان حيا ، رغم انه كان هو نفسه صاحب متجر للحلوى ...

ـ لقد كان زوجى جيو فانى باتيستا رجلا عاقلا ، ولئن انجرف اثناء شبابه فى بعض الامور ...

ولكن بانتاليون لم يشأ أن يسمع شيئا آخر ، فخرج من الغرفة وهو يردد بلهجة العتاب : « رحمة الله عليك يا جيو فانى باتيستا ! »

فقالت جيما عندئذ : « لو كان ايمليو يحس فى قلبه مشـاعر الوطنية ، وكان يحرص على أن يقف جميع قواه على انقاذ ايطاليا ، فان تلك المهمة المقدسة تستحق منه أن يغامر بمستقبله ، اما فى

سبيل المسرح ، فلا ... »

فلما سمعت السيدة ليونور هذا الكلام ، قلقت أشد القلق ، فتوسلت الى ابنتها الا تضلل أخاها الفتى ، فحسبها أن تكون هى من أنصار الجمهورية ! ..

قالت السيدة ليونور هذا الكلام ثم أخذت تتأوه ، وتشكو من صداع رأسها ، حتى كان يخيل اليها أن رأسها يهم ان ينفجر .

فأسرعت جيما تعتنى بأمها ، فبللت جبينها بماء الكولونيا ، ونفخت عليه ببطء ، ثم قبلت خديها فى رفق ، ووضعت رأسها على الوسائد ، ومنعتها من الكلام ، وقبلتها مرة أخرى . ثم التفتت نحو سانين ، وأخذت تثنى على أمها بصوت فيه انفعال وفيه مزاح :

— ليتك تعلم كم هى طيبة ، وكم كانت جميلة ! ماذا أقول ؟ انها لا تزال جميلة ، أنظر الى عينيها !

قالت جيما ذلك وأخرجت من جيبها منديلا أبيض ، فغطت به وجه أمها ، ثم أنزلته شيئا فشيئا ، حتى كشف عن الجبين فالحاجبين فالعينين ، وعندئذ رجت أمها ان تفتح عينيها .

فأطاعتها السيدة ليونور ، فصاحت جيما اعجابا .

والحق ان عينى السيدة ليونور كانتا جميلتين جدا .

فتركت جيما المنديل الابيض مبللا على الجزء الاسفل من وجه أمها ، وهو أقل تناسقا من القسم الاعلى ، وراحت تغرق أمها بالقبل مرة اخرى .

فكانت مدام روزيلى تضحك ، وتشيح بوجهها ، وتتظاهر بأنها تريد أن تدفع ابنتها عنها . وكانت جيما ، من جهتها ، تتظاهر بأنها تغالب أمها ، لا بملامسات خفيفة على غرار ما يفعل الفرنسيون ، بل بتلك الرشاقة الإيطالية التى تحس فيها القوة .

وأعلنت السيدة ليونور أخيرا أنها تعبت . فنصحتها جيما أن تقيل فى هذا المقعد نفسه ، ووعدتها بأن تظل هى والسيد الروسى أثناء قيلولتها هادئين هدوء فأرتين .

فأجابت السيدة ليونور بابتسامة ، وتنهدت قليلا ونامت . وجلست جيما على كرسى صغير قرب أمها ، وظلت ساكنة لا تتحرك وكانت كلما لاحظت أن سانين يهم أن يقوم بأيسر حركة ، من حين الى حين ، تضع اصبع احدى يديها على فمها ، بينما هى تسند باليد الاخرى الوسادة وراء رأس أمها ، وتهمس بصوت لا يكاد يسمع ، وهى تنظر الى سانين من جانب .

فما لبث سانين أن سكن هو الاخر ، حتى لكأنه منوم ، وراح يعجب من أعماق روحه بهذه اللوحة الرائعة : غرفة معتمة قليلا ، وازهار نضيرة جميلة مبعثرة هنا وهناك كأنها نقاط حمراء متقدة ، فى آنية قديمة خضراء اللون ، وهذه المرأة النائمة ، ووجهها الطيب يحف به بياض الوسادة البيضاء كالثلج ، وأخيرا هذه المخلوقة الفتية التى ترعاها بكل ما فى قلبها من حنان ، طيبة هذا الطيب كله ، طاهرة هذه الطهارة كلها ، جميلة هذا الجمال الذى لا يوصف ، بعينين سوداوين ، عميقتين ، مليئتين بالظلال ، لامعتين مع ذلك .

تساءل سانين : أين أنا ؟ أهذا حلم ؟ أهذه حكاية حب ؟ ما الذى جاء بى الى هنا ؟

دق جرس الباب ، ودخل الى المخزن فلاح يرتدى صدرة حمراء وقبعة من فراء . انه اول زبون يدخل المخزن فى هذا اليوم .

وكانت السيدة ليونور لا تزال نائمة ، وكانت جيما تخشى أن توقظها اذا هى سحبت ذراعها . فقالت للفتى الروسى بصوت منخفض :

ـ هل لك أن تستقبل الزبون عنى

فخرج سانين من الغرفة على رءوس الاصابع ودخل الى المخزن . كان الفلاح يريد ربع كيلو من مربب التمنع . فاتجه سانين الى جيما يسالها من خلال شق الباب بصوت منخفض :

ـ كم يجب أن آخذ منه .

فقالت له جيما بتلك اللهجة نفسها :

ـ ستة قروش .

فوزن سانين ربع كيلو ، ثم بحث عن ورقة يلف بها البضاعة حتى وجدها ، فصنع منها كيسا ، واخذ يضع المربيات فيه، فكانت تتناثر من هنا ومن هناك ، واستطاع اخيرا فى كثير من العناء ، أن يدخل المربب فى الكيس ، فناوله للمشترى ، وقبض منه الثمن .

وكان المشترى ينظر الى سانين مذهولا ، وهو يدير قبعته فوق صدره ، بينما كانت جيما ، فى الغرفة المجاورة ، تضع يدها على فمها لتخنق ضحكها العنيف .

فما أن خرج هذا الزبون حتى دخل ثان ، فثالث ... فقال سانين لنفسه :

ـ لا شك اننى صاحب حظ .

طلب الثانى قدحا من شراب اللوز ، وطلب الثالث نصف كيلو من المربب .

واستطاع سانين ان يلبى رغبات جميع الزبائن ، فكان يدير الملاعق فى الأقداح بقوة ، ويهز الاطباق ، ويخرج الفطائر الجافة وقطع الحلوى من التطريزات والعلب فى كثير من الحرارة .

فلما حسب الغلة بعد ذلك ، ادرك انه باع شراب اللوز بأرخص

من سعره ، وأنه باع الحلوى أغلى من ثمنها بقرشين .

وكانت جيما لا تزال تضحك ، وكان سانين نفسه يشعر بمرح لا عهد له بمثله من قبل ، ويحس بسعادة عظمى .

فكان يخيل اليه أنه يتمنى لو يعيش حياته كلها وراء هذه البسطة يبيع الحلوى وشراب اللوز ، بينما تنظر اليه هذه الفتاة الجميلة بعينين ماكرتين على مودة وصداقة ، وبينما تنفذ شمس الصيف من خلال أوراق الاشجار الكثيفة فتملأ الغرفة بأشعتها الذهبية المخضرة، أشعة الغروب ، وبينما يذوب قلبه فى خدر ناعم من كسل واسترخاء وصبا هو ميعة الصبا .

وطلب الزبون الرابع فنجانا من القهوة . فكان لابد لسانين فى هذه المرة من ان يلجأ الى بانتاليون ، فطلب اليه أن يقدم الى الزبون حاجته ومضى الى مكانه قرب جيما . كانت السيدة ليونور لا تزال نائمة ، وكانت ابنتها مسرورة من نومها أشد السرور . قالت :

ـ حين تنام أمى ، يزول صداعها فورا .

وعاد سانين يتحدث عن « تجارته » بصوت منخفض ، فسأل عن اسعار البضاعة فى جد واهتمام ، وأجابت جيما عن أسئلته بهذه اللهجة نفسها . وكانا مع ذلك يحسان كلاهما فى قرارة نفسيهما انهما يمثلان ...

وفجأة دوى فى الشارع صوت ارغن يعزف عليه لحن فرايشوتز : « من خلال الجبال ، من خلال السهول ! » ، دوى قويا صارخا ، مرنجا مهتزا ، فى الهواء الساكن .

فارتعشت جيما . وقالت :

ـ ستوقظ هذه الموسيقى أمى .

فهرع سانين الى الشارع ، فوضع قبضة من القروش فى قبضة العازف على الارغن ، وألح عليه ان يذهب .

فلما عاد الى الغرفة ، شكرته جيما بايماءة خفيفة من راسها واخذت، وهى تبتسم ابتسامة ذاهلة ، تدندن هى نفسها ذلك اللحن الجميل من الحان فيبر ، الذى يعبر فيه ماكس عن شكوك الحب الاول .

ثم سألت سانين هل يعرف لحن فرايشوتز ، وهل يحب فيبر ، واضافت انها تؤثر هذه الموسيقى على كل موسيقى اخرى ، رغم انها ايطالية .

وانتقل الحديث من الموسيقى الى الشعر والى الرومانسية ، ثم الى هوفمان الذى كان رائجا فى ذلك العصر .

وكانت السيدة ليونور لا تزال نائمة أثناء ذلك ، حتى لقد كانت تشخر قليلا ، وكانت الاشعة التي تتسلل من خلال الشباك حزما ضيقة مائلة ، تتحرك بلا انقطاع ، ملامسة أرض الغرفة . وقطع الاثاث ، وثوب جيما ، وأوراق الازهار .

كانت جيما لا تحب حكايات هوفمان كثيرا ، حتى لقد كانت تبدو لها مملة .

ان طبيعتها الواضحة التى هى من طبيعة أبناء الجنوب ، تنفر من ذلك الجانب الغامض الخيالى فى أقاصيص هذا القاضى . فكانت تقول بشيء من الاحتقار :

— أن هذه الحكايات تصلح للاطفال .

وكانت تصف هذا المؤلف بأن آثاره يعوزها الشعر .

غير أن قصة واحدة من قصصه كانت تعجبها كثيرا ، وخاصة بدايتها ، ذلك انها كانت قد نسيت الخاتمة ، ولعلها لم تقرأها اصلا .

انها قصة فتى يلتقي عرضا — ربما فى متجر للحلوى — بفتاة باهرة الجمال ، فتاة يونانية ، كان يصحبها عجوز غريب ملفع بجو من السر .

فما ان وقع بصر الفتى على الفتاة حتى احبها ، ونظرت هى اليه نظرة متوسلة مستعطفة ، كأنها تسأله ان ينقذها ...

فخرج الفتى بضع لحظات ، فلما عاد وجد أن الفتاة والعجوز قد اختفيا ، فهرع فى اثرهما يحاول ان يلحق بهما ، ولكن جميع جهوده ذهبت سدى ، فانه لم يعثر لهما على اثر ...

لقد أضاع الفتاة الى الابد ، ولم يستطع أن ينسى نظرتها المتوسلة الضارعة ، وظل ينهش قلبه الما أنه ربما كان قد ترك سعادة حياته كلها تفر من بين أصابعه .

أن خاتمة القصة التى كتبها هوفمان ليست هى هذه الخاتمة ، ولكن ذلك ما بقى منقوشا فى ذاكرة جيما .

قالت جيما تضيف الى ذلك :

— يخيل الى أن لقاء كهذا اللقاء ، وانفصالا كهذا الانفصال يقعان فى الحياة أكثر مما نظن ...

فلم يجب سانين عن هذه الملاحظة بشيء ، ولكنه نقل الحديث بعد بضع لحظات الى الكلام عن السيد كلوبر .

تلك اول مرة يتحدث فيها عن كلوبر ، بل انه لم يتفق له قبل ذلك

إن خطر بباله هذا الرجل ، خطيب جيما .
فلم تجب الفتاة بشيء أيضا ، بل ظلت واجمة تفكر ، وهي تعض ظفر سبابتها عضا خفيفا ، وتنظر الى جانب . ثم إخذت تثني على خطيبها ، وتحدثت عن النزهة التي رسم خطتها للغد ، ثم عادت الى الصمت وهي تلقي على سانين نظرة تفيض حرارة وحياة .
فلم يجد الفتى الروسى فى هذه المرة ما يقوله .
دخل ايميليو الغرفة راكضا ، وأحدث من الصخب ما أيقظ أمه من نومها .
ففرح سانين بوصول صديقه الصبى .
ونهضت السيدة ليونور عن مقعدها .
ودخل بانتاليون يقول ان المائدة قد جهزت .
انه صديق للبيت ، ومفن قديم ، وخادم ، وطباخ فوق ذلك كله .

بقي سانين للغداء . وقد استمسكوا به بعد الغداء ايضا بحجة ن الحر شديد ، فلما انخفضت الحرارة دعوه الى الحديقة لتناول القهوة تحت ظلال أشجار الاكاسيا .

وقبل سانين الدعوة ، فقد كان يحس انه سعيد كل السعادة . ان جريان الحياة هادئة رتيبة أمر فاتن . وقد استسلم سانين لهذه الفتنة سعيدا بها ، فكان لا يطلب من اللحظة الحاضرة شيئا آخر ، ولا يفكر في المستقبل ، ولا يتذكر الماضي . واين عساه يجد من السحر مثلما يجد في صحبة هذه الانسانة الاخاذة ، جيما ؟ ان عليه أن يفارقها بعد قليل ، واغلب الظن انه لن يراها بعد ذلك أبدا ، فهو يقول لنفسه ما جاء في اغنية أوهلاند ، بينما يحمله ويحملها على أمواج الحياة مركب واحد : « افرح ، تذوق الحياة ، ايها المسافر ! »

وكان كل شيء يبدو للمسافر السعيد جميلا ممتعا .

وقد اقترحت عليه السيدة ليونور أن يتبارى معها ومع بانتاليون في لعبة « التريزيت » ، وهي لعبة بسيطة غير معقدة من العاب الورق التي يحبها الايطاليون ، فربحت منه بضعة قروش ، فأحس سانين من ذلك بسعادة كبيرة .

واستجاب بانتاليون لطلب ايمليو ، فأمر كلبه تارتاجليا بتنفيذ جميع الحركات التي يعرفها ، فقفز تارتاجليا فوق عصا ، وتكلم ، أي نبح وعطس ، وأغلق الباب ببوزه ، وجاء بخف سيده ، الخف القديم ، ثم البس معطفا ، فأخذ يمثل دور الجنرال برنادوت حين راح نابليون يصب عليه اقذع اللوم واقساه على ما ارتكب من خيانة .

كان بانتاليون هو الذي يمثل دور نابليون ، وكان في تمثيله هذا الدور أمينا بعض الامانة ، كتف ذراعيه ، ووضع فوق عينيه قلنسوة ذات ثلاثة قرون ، واخذ يقرع الجنرال باللغة الفرنسية غاضبا حانقا ... ويالها من لغة فرنسية تلك التي كان يتكلمها بانتاليون ! وقد جلس تارتاجليا ، خافض الذيل ، أمام امبراطوره ، وأخذت عيناه تطرف وجلا تحت حافة المعطف المائل ... حتى اذا رفع نابليون صوته من حين الى

حين ، نهض برنادوت واقفا على قائمتيه الخلفيتين .

– اذهب ايها الخائن ..

هكذا صرخ نابليون باللغة الايطالية ، ناسيا وهو في غمرة الغضب أن عليه أن يحافظ على طابعه الفرنسي . فاختبأ برنادوت تحت الديوان، ثم ما لبث أن رجع وهو ينبح نباحا فرحا ، يدل على أن التمثيل قد انتهى .

وكان المتفرجون يضحكون ضحكا شديدا تدمع منه العيون ، وكان سانين اكثرهم ضحكا .

أن لجيما ضحكة جميلة جدا ، ضحكة متصلة بطيئة ، تقطعها صرخات صغيرة شاكية ... غريبة كل الغرابة . فكان سانين يسكر نشوة بتلك الضحكة ، حتى ليكاد يتمنى أن يغرق وجه الفتاة بالقبلات كلما سمع صرخة من هذه الصرخات الصغيرة . وهبط الليل . وآن للفتى أن يذهب .

فاستأذن سانين أصحابه بالانصراف عدة مرات ، وكان يردد لكل منهم قوله مكررا :

– الى غد ..

حتى أنه قبل أيميليو . وانصرف حاملا في خياله صورة الفتاة المظفرة ، ضاحكة تارة ، مطرقة هادئة أو غير مبالية تارة أخرى ، فائضة سحرا في جميع الاحوال . ان عينيها اللتين تتسعان وتنضمان ويلمع فيهما بريق المرح كأنهما النهار ، ثم تحجبهما الاهداب وتعتمان وتظلمان كأنهما الليل ، كانتا ماثلتين في خياله في كل لحظة ، وكانتا تبثان اضطرابا غريبا في جميع ما في ذهنه من صور أخرى ومن افكار .

ولكن لم يتفق له ، مرة واحدة ، أن خطر بباله السيد المدير ، ولا الحوادث التي كانت تجبره على البقاء في فرنكفورت ، اى أن كل ما كان يشغله ويقض مضجعه في الليلة البارحة قد زال من نفسه الآن .

كان سانين فتى جميلا جدا ، فارع القامة رشيقا ، ذا قسمات لطيفة غائمة قليلا ، وذا عينين ضاربتين الى الزرقة ، تفيضان طيبة، وذا شعر ذهبي وجلد أبيض متورد . وكان ما يميزه قبل كل شيء هو هذا الذي يبدو في وجهه من معاني المرح الصادق، الساذج قليلا، وهذه الضحكة الواثقة المنفتحة التي كان يعرف بها في الزمان الماضي من اول نظرة ، أبناء الطبقة النبيلة الصغيرة من الفلاحين الروس . لقد كان أولئك الفتيان من أبناء الاسر شبابا طيبين ولدوا وترعرعوا بحرية في بلاد هي أشباه مراع مترامية الاطراف .

وكانت لسانين مشية قلقة ، وصوت يصفر قليلا ، وكان ، متى نظر اليه أحد ، يرد على النظرة بابتسامة هي ابتسامة طفل . وكان في جسمه نضارة وصحة . غير أن الطابع الذي يميز وجهه قبل كل شيء انما هو النعومة ، النعومة أولا .

وما كان يعوزه الذكاء ، وكان قد تعلم كثيرا من الاشياء . وقد احتفظ بنضارة فكره ، رغم رحلته الى الخارج ، أما العواطف التي كانت تقلق نفوس الصفوة المختارة من الشبيبة الروسية في ذلك العصر فانها لم تجد الى نفسه سبيلا .

ان الروائيين الروس ، بعد أن بحثوا عن شخوص جديدة ، وقد اخذوا في الآونة الاخيرة يصورون شبابا يتباهون قبل كل شيء بالنضارة ولكن نضارتهم هي نضارة أسماك الصدف التي يؤتى بها من فلنسبورج الى بطرسبرج .

أما سانين فلا يشبه أولئك الشباب في شيء .

وما دمت قد عمدت الى التشبيه ، فلأقل ان سانين أشبه بشجرة كثيفة من اشجار التفاح ، مزروعة في بستان روسي تحرث أرضه ، أو انه أشبه بحصان فتي في السنة الثالثة من عمره ، قد أحسن علفه ، وقويت ساقاه ، ولم يروض بعد .

ان الذين التقوا بسانين بعد ذلك ، بعد أن حطمته الحياة ، ففقد مخملية الصبا الاول، قد عرفوا فيه انسانا آخر مختلفا كل الاختلاف.

في صباح الغد ، كان سانين لا يزال في سريره ، حين دخل عليه

ايمليو ، مرتديا ثياب يوم الاحد ، حاملا بيده عصا ، مسرفا فى التطيب بالعطر ، مسرعا عنيفا في دخوله ، فقال له ان السيد كلوبر سيصل بالعربة بعد قليل ، وان الجو يبشر بأنه سيكون جوا جميلا . وأن كل شيء قد أعد ، ولكن أمه لن تشترك فى النزهه ، لان الصداع قد عاودها

وحمله على الاسراع فى ارتداء ملابسه ... فما ينبغى أن تضيع لحظة واحدة .

وفعلا وصل السيد كلوبر قبل ان يفرغ سانين من زينته فقرع الباب ، ودخل ، وحيا منحنيا نصفين ، وقال آنه مستعد للانتظار مأشاء سانين ، ثم جلس ووضع قبعته على ركبته برشاقة .

ان صاحبنا مدير البيع ، الانيق المسرف فى الاناقة قد سكب على نفسه قنينة كاملة من العطر ، حتى كانت كل حركة من حركاته تمشي وراءها دفقة من العبق الناعم .

وقد وصل على عربة مكشوفة ، يجرها حصانان كبيران قويان .

وبعد ربع ساعة كان سانين وكلوبر وايمليو يصلون مظفرين أمام رصيف متجر الحلوى . وقد رفضت السيدة روزيلى أن تنضم اليهم .

وارادت جيما أن تبقى مع أمها ، ولكن السيدة ليونور دفعتها الى الخارج عنوة أن صح التعبير ، وقالت لها :

ــ لست فى حاجة الى أحد يبقى معى ، فانني أريد أن أنام ، وكنت أود لو أرسل معكم بانتاليون ، لولا أن من الواجب أن يبقى أحد فى المخزن

ــ هل نستطيع أن نأخذ تارتاجليا ؟

ــ طبعا يابنى .

فقفز تارتاجليا فورا وهو ينط من الفرح ، فجلس على المقعد الى جانب الحوذى ، واخذ يلعق شفتيه . كان واضحا أنه قد اعتاد مثل هذه النزهات .

كانت جيما تضع على رأسها قبعة من القش مزدانة بشرائط بلون القرفة ، وكان جناح القبعة منحنيا على الجبهة يحمى الوجه كله . فكان الظل يتلبث على الشفتين اللتين تحمران احمرارا بريئا جميلا ، كأنهما أوراق وردة كثيفة ، بينما تلتمع الاسنان خلفهما على استحياء

جلست جيما فى قاع العربة مع سانين، وجلس كلوبر وايمليو أمامهما وظهر وجه السيدة ليونور شاحبا فى النافذة ، فلوحت لها جيما بمنديلها ، وسارت العربة ..

— ١٥ —

سودن مدينة صغيرة فى ضواحي فرنكفورت ، تقع موقعا جميلا من سفح أحد فروع جبل التاونوس ، وقد اشتهرت في روسيا بمياهها التي يقال انها تفيد صحة من يشكون ضعفا في الرئة

وسكان فرنكفورت يذهبون الى سودن التماسا للتسلية . ففيها حديقة جميلة جدا ، وفيها للمتنزهين مقــاصف عدة يشربون فيها البيرة والقهوة تحت ظلال أشجار الزيزفون الباسقة واشجار الجميز

والطريق من فرنكفورت الى سودن يحاذى الضفة اليمنى من نهر الماين ، وهو مطرز من اوله الى آخره بالاشجار المثمرة

فبينما كانت العربة تسير الهوينى على الطريق الممهد ، كان سانين يراقب خلسة سلوك جيما مع خطيبها . انه يراهما معا لاول مرة . فلاحظ أن الفتاة هادئة طبيعية ، وان تكن أكثر تحفظا وجدا من مالوف عادتها .

وكان يبدو على كلوبر مايبدو على رئيس متواضع يبيح لنفســه ولمرءوسيه متعة معتدلة مناسبة .

ولم يلاحظ سانين فى خطيب جيما اى تعجل . فلقد كان واضحا ان السيد كلوبر يعد زواجه أمرا مبتوتا فيه ، فلا داعى الى قلق البتة !

وظل السيد كلوبر لايبارحه شعوره بالتفوق لحظة واحدة ! ففى أثناء نزهة طويلة قاموا بها قبل الغداء خلال الغابات ، وفى الجبال والوديان التى تحيط بمدينة سودن ، كان السيد كلوبر حين يظهر اعجابه بمفاتن الطبيعة يعامل الطبيعة نفسها بتواضع يمازجه شعور بالتفوق : فهذه الساقية كان ينبغى لها الا تجرى على خط مستقيم وانما يجب أن تتعرج وتتثنى فيكون منظرها أجمل وأروع ، وهذا عصفور ما كان ينبغى له ان يجرى فى تغريده على وتيرة واحدة ، وانما يجب أن ينوع أنغامه .

لم يبد على جيما أنها تضيق بالنزهة ، حتى لقد بدا عليها انهــا مسرورة بها ، ومع ذلك أحس ســـانين أن جيما اليوم غير جيما الامس . لم يكن فى وجهها شيء من حزن ، ولا كان جمالها أشــد

اشراقا فى يوم منه فى هذا اليوم ، الا انها كانت منطوية على نفسها .

كانت تسير الهوينى وقد فتحت مظلتها ولبست قفازيها ، وكانت تخطر بخطوات هادئه ليس فيها تعجل ، كما تخطر الفتيـــات اللاتى حسن تهذيبهن ورقت حاشيتهن . وكانت لاتتكلم الا قليلا .

وكان ايمليو لايبدو أنه مرتاح كل الارتياح هو الآخر ، وكان سانين اقل ارتياحا منه ايضا . وكان الفتى الروسى مضطرا بحكم الضروره أن يتحدث بالالمانية طوال الوقت .

كان تارتاجليا يحس وحده بانه حر ! كان يلاحق الشحارير وهو ينبح نباحا مجنونا ، وكان يقفز فوق الحفر وجذوع الاشجار المقطوعة ويغطس فى الســـــواقى ، وكان يتلقف الطعـــام لقما كبيرة ، ويهتز ويعوى ، ثم يمضى سريعا وقد مد لسانه الاحمر حتى وصل الى الكتف .

وكان السيد كلوبر يعمل كل مايرى انه لائق لادخال المسرة على قلوب صحبه . فدعاهم الى الجلوس فى ظل شجرة كبيرة من أشجار السنديان ، وأخرج من جيبه كتابا صغيرا عنوانه : « صواريخ — أو يجب أن تضحك وستضحك حتمـــا » ، واخــذ يقرأ فيه النوادر والفكاهات تسلية للجمـــاعة . قرأ مايزيد على عشر نوادر دون أن يستطيع اضحاك احد . وكان سانين ، وحده ، يرى أن عليه ، من باب الادب ، أن يظهر أسنانه فى نهاية كل أقصوصة من الاقاصيص التى كان السيد كلوبر نفســه يختمها بضحكة مقتضبة معتدلة فيها ايضا شيء من التواضع .

فلما أزف الظهر دخل السيد كلوبر وضيوفه أول مطعم فى سودن وكان يجب عليهم ان يختاروا اطباق الطعام .

كان السيد كلوبر قد اقترح أن يتغدوا فى « صالون الحديقة » وهو جناح مغلق . فتمردت جيما فى هذه المرة ، وقالت انها تريد أن تتناول الطعام فى الحديقة ، فى الهواء الطلق ، على مائدة صـــغيرة من الموائد أمام المطعم ، وأضافت قولها : « انها سئمت أن تظل طوال الوقت مع أشخاص بأنفسهم ، وانها تريد أن ترى وجوها جديدة » وكان عدد كبير من الموائد قد شغل .

فاذعن السيد كلوبر لـ « نزوة » خطيبته . وبينما كان يتحدث على انفراد مع رئيس الخدم ، كانت هى ساكنة قد خفضت عينيها وعضت على شفتيها : كانت تحس أن سانين يرقبها بلا انقطـــاع ، فكانها مستاءة من هذه اللجاجة .

وعاد السيد كلوبر اخيرا يقول ان الغداء سيكون معدا بعد نصف ساعة ، واقترح ازجاء الوقت أثناء ذلك بلعبة الاسطوانات ، واضاف الى هذا أن هذه اللعبة تفتح الشهية « هأ ! هأ ! هأ ! » ...

فكان يلعب لعب الماهر الحاذق ، وكان حين يرمى الكرات يتخذ أوضاعا هرقلية ، فهو يعمل فى اللعب جميع عضلاته ، بل ويرفع ساقه قليلا فى الوقت نفسه . ان السيد كلوبر رجل رياضى مفتول الجسم حسن الشكل . يستحيل إن يرى المرء يدين أنصع بياضا واشد نعومة من يديه ... وانها لمتعة أن يراه المرء وهو ينشفهما بمنديل من الحرير الهندى أحمر مذهب ثرى ! ...

وجاء الطعام أخيرا ، وإستطاعت الجماعة كلها أن تجد لها مكانا حول مائدة صغيرة .

من ذا الذى لايعرف الغداء الالماني التقليدى ؟ حساء من ماء فيه كريات كبيرة من العجين ، لحم مسلوق جاف كأنه سداده ، يسبح فى دهن أبيض لزج ، وتحف به البطاطس ملطخة ومعها فجل مبشور . طبق من سمك الصلور سقى بالخل واضيف اليه الكبر ، ثم لحم مقلى يقدم مع المربب ، وتعقبه تلك الحلوى التى لابد منها والتى اسمها « ميلشبايزى » ، وهى نوع من الباوظة يضاف اليها سائل أحمر حريف .

ولكن الخمر والبيرة كانتا ، فى مقابل ذلك ، من أجود الخمور والبيرة !

ذلك هو الغداء الذى قدمه أحسن مطعم فى سودن لزبائنه .

وقد جرى كل شىء على أتم وجه من الكلفة ... فلم يكن ثمة حرارة حتى حين رفع السيد كلوبر كأسه قائلا : « نخب من نحب » ، لم يكن ثمة انطلاق . كان الجو أكثر تقيدا بالقواعد من أن يكون مرحا .

حتى اذا انتهى الطعام ، قدمت قهوة شقراء رائعة ، محمرة ، هى القهوة الالمانية الحقة .

وطلب السيد كلوبر من خطيبته ، فى كثير من الادب ، أن تأذن له بتدخين سيجار .

وهنا وقع شىء لم يكن فى الحسبان ، شىء مزعج جدا ومسىء جدا ..

ذلك أن عددا من ضباط حامية مدينة ماينتس كانوا جالسين الى مائدة مجاورة . وكان يسهل على المرء أن يلاحظ فى أتجاه نظراتهم وفى همساتهم أن جمال جيما قد اخذ بلبهم . وكان واحد منهم ، وقد ذهب الى فرنكفورت ، لاينقل بصره عن الفتاة ، كأنه يعرفها حق المعرفة ، ولاشك انه كان يعرف من هى .

كان هؤلاء السادة الضباط قد شربوا واسرفوا فى الشراب ، فقد كانت مائدتهم مغطاة بالزجاجات الفارغة . وفجاة نهض الضابط الذى كان لاينقطع عن النظر الى جيما ، نهض من مكانه ممسكا

بقدحه ، واتجه الى المائدة التي كانت تجلس اليها الفتاة الايطالية .
انه شاب صغير أشقر جميل القسمات لطيف الملامح ، ولكن الشراب كان قد شوه وجهه ، فخداه متقبضان ، وعيناه ملتهبتان غامضتان قد ظهر فيهما شيء من السفاهة والوقاحة .
وقد حاول رفاقه أول الامر أن يصدوه ، ولكنهم تركوه آخر الامر قائلين : « ليكن مايكون ! » ...
فلما وصل الى جيما وقف وقد انثنت ساقاه قليلا ، وصاح بصوت صارخ مكسور تدل نبرته على صراع داخلي :
ـ أشرب نخب أجمل بائعة ليمونادة في فرنكفورت وفي العالم كله
قال ذلك وافرغ الكأس في جوفه دفعة واحدة ثم أضاف :
ـ وآخذ هذه الوردة التي قطفتها اصابعها الالهية .
وتناول وردة كانت على المائدة أمام جيما .
شدهت جيما ، وذعرت ، واصفر وجهها أصفرارا شديدا ... ثم حل الاستياء والاستنكار محل الذعر ، فاصطبغ وجهها بحمرة قانية ، وانقضت نظراتها على الرجل الذي يهينها انقضاض الصاعقة فاضطرب الضابط من هذه النظرات اضطرابا واضحا ، وتمتم ببعض كلمات لم تفهم ، وحنى رأسه محييا ، ثم عاد أدراجه الى رفاقه ، فاستقبلوه بضحكات صافية وتهنئات محبوسة .
فما كان من السيد كلوبر الا أن نهض منتصبا بكل قامته ، فوضع قبعته على رأسه ، وقال في وقار ، ولكن بصوت غير مرتفع كثيرا :
ـ هذه وقاحة لم أر مثلها من قبل .
ثم نادى الخادم بصوت قاس ، وطلب منه أن يوافيه بالحساب فورا . ولم يكتف بذلك بل أمر بكدن العربة ، وقال أنه ماينبغى لأناس محترمين ان يعرضوا انفسهم في هذا المحل للاهانة .
كان ايمليو يرتعش من شدة الغيظ والحنق .
واضاف السيد كلوبر يقول بتلك اللهجة نفسها :
ـ انهضي يا آنستي ، ليس مكانك هنا ... سندخل الى المطعم بانتظار العربة .
فنهضت جيما دون أن تقول كلمة واحدة . وقدم اليها السيد كلوبر ذراعه فأخذتها ، واتجه معها نحو المطعم بخطا مختالة ، بخطا كانت كشخصه كله تزداد اختيالا وكبرياء كلما ازداد ابتعادا .
وتبعهما المسكين ايمليو .
وبينما كان السيد كلوبر ينقد الخادم حسابه ، بعد حسم

« البقشيش » على سبيل الغرامة ، مضى سانين بسرعة نحو مائدة الضباط .

كان الضابط الذى أهان جيما يقرب الوردة التى سلبها جيما من انوف رفاقه يتشممون رائحتها ، فاتجه اليه يخاطبه بالفرنسية قائلا فى وضوح :

ـ ماصنعته أيها السيد لايليق بانسان شريف ، ولا يليق باللباس العسكرى الذى ترتديه ، وانما جئت اليك الان لاقول لك انك قليل الادب وقح .

فوثب الضابط الشاب من مكانه ، ولكن أحد رفاقه ، وهو ضابط اكبر سنا منه ، أمسك به واجبره على الجلوس ، ثم اتجه الى سانين وقال له :

ـ انت قريب هذه الانسة او اخوها او خطيبها ؟

ـ بل أنا شخص اجنبى . انا روسي . ولكننى لا أستطيع ان أقف مكتوف الايدى أمام وقاحة كهذه الوقاحة . هاك بطاقتى وعنوانى . وسيجدنى هذا السيد الضابط مستعدا لمبارزته فى الوقت الذى يشاء .

قال سانين ذلك ورمى بطاقته على المائدة ، واستولى فى الوقت نفسه على الوردة ، وكانت قد سقطت من يد أحد الضباط على صحنه .

وأراد الضابط المهين أن ينهض مرة اخرى ، ولكن رفيقه منعه عن النهوض قائلا :

ـ مهلا يادنهوف ، مهلا .

ونهض اخيرا ، فرفع يده الى خوذته ، وقال بلهجة وحركات لاتخلو من الاحترام ، أن أحد ضباط فرقته سيشرف بالحضور اليه فى غد .

فأجاب سانين على هذا بتحية جافة ، وأسرع يلحق بأصدقائه .

تظاهر السيد كلوبر بانه لم ينتبه الى غياب سانين ولا لاحظ مشاجرته مع الضباط . وكان يستحث الحوذى على الاسراع فى كدن العربة ، ويؤنبه على بطئه . ولم تتجه جيما بالكلام الى سانين ايضا ، حتى انها لم تنظر اليه ، ولكن كان واضحا من تقطيبها واصفرار شفتيها وانقباضهما ومن سكوتها انها تعانى الما شديدا .

كان يتمنى ايميليو لو يكلم سانين ويسأله . فقد رآه يقترب من الضباط ولاحظ انه رمى اليهم قطعة من الكرتون لاشك أنها بطاقته

... كان قلب الصبي يخفق ، وكانت وجنتاه محمرتين . كان يتمنى ان يرتمي على عنق الشاب ، وان يبكي ، وأن يمضي معه فورا ليعلق جميع هؤلاء الضباط السفلة . ولكنه استطاع ان يلجم جماح نفسه ، واكتفى بان يتابع في كثير من الانتباه حركات صديقه الروسي النبيل وانتهى الحودي اخيرا من كدن العربه ، فصعدوا اليها جميعـا ، واختار إيمليو لنفسه أن يجلس مع تارتاجليا قرب السائق ، فذلك ادعى الي راحته ، لانه لن يكون هنالك أمام السيد كلوبر الذى أصبح لايطيق ان يراه دون غضب .

وظل السيد كلوبر يتحدث طوال الطريق من غير انقطـاع ... ولكنه كان يتكلم وحده ... لم يعارضه أحد ، ولم يكن من رأيه أحد .

قال انهم اخطاوا فلم يتبعوا نصيحته حين اقترح تناول الغداء في الصالون ، والح على هذا كثيرا ، فلو انهم وافقوه على رأيه لجنبوا انفسهم المزعجات .

ثم أعلن بعض الاراء الجريئة التي تشبه ان تكون نقدا للحكومة التي تتساهل مع الضباط في هذا الاخلال بقواعد الانضباط ، وفي هذا الاستهتار باحترام البورجوازية ، واضاف يقول : « ذلك ان هذا هو ما يولد الاستياء شيئا فشيئا ، ومن الاستياء تخرج الثورة ... وهذه فرنسا مثال محزن على ذلك » . وزفر السيد كلوبر زفرة مترددة ولكنها قاسية . واسرع يقول انه ، شخصيا ، يحترم السلطات أعمق الاحترام ، وانه لايمكن اطلاقا ان يكون ثوريا في يوم من الايام . ولكن ذلك لايمنعه من أن يلوم مثل هذا الخروج على الاخلاق لوما صريحا .

واسترسل السيد كلوبر يقول آراء كثيرة فيما هو أخلاقي وما هو غير اخلاقي ، وفيما هو لائق وماهو غير لائق .

كانت جيما حتى منذ النزهة التي سبقت الغداء غير راضية عن السيد كلوبر ، وكانت لهذا السبب نفسه متحفظة مع سانين ، فلما استرسل السيد كلوبر في هذا الحديث الذى لم يشاركه فيه أحد ، اخذت تشعر شعورا واضحا بالعار من خطيبها ! وفي نهاية الرحلة كان من السهل على المرء أن يلاحظ انها أصبحت لاتطيقه ، حتى انها ألقت على سانين نظرة توسل ، دون أن تخاطبه بكلمة .

وكان سانين ، من جهته ، يشعر بالشفقة على جيما اكثر مما يشعر بالحنق على السيد كلوبر . وكان في قرارة قلبه سعيدا بما

وفع ، رغم ان مبارزة تنتظره فى الغد ، دون ان يعرف تعليلا لهذه السعادة التى يشعر بها .

وانتهت هذه النزهه المزعجة أخيرا .

وحين كان سانين يعاون جيما على النزول من العربة ، دس فى يدها الوردة دون ان يتكلم ، فاحمر وجه الفتاة احمرارا شديدا ، وشدت على يد الفتى ، واسرعت تخفى الزهرة .

لم يكن سانين ينوى أن يعود الى المقهى ، رغم أنهم لم يكونوا فى ساعة متأخرة من المساء . ثم أن جيما لم تدعه الى ذلك . وخرج بانتاليون للمتنزهين الى الرصيف فقال لهم ان السيدة ليونور نائمة

فاستأذن ايمليو صديقه سانين ، وكان كأنه يخاف منه ، من شدة اعجابه به .

ومضى السيد كلوبر فرافق سانين حتى فندقه ، ثم ودعه بتحية فاترة . كان هذا الالمانى ، رغم برودته وثقته ، يشعر بشىء من الانزعاج .

والحق أن الركب كله كان يشعر بانزعاج . ولكن هذا الشعور لم يلبث أن زال من نفس سانين ، وحلت محله حالة روحية لايمكن تحديدها ، ولكنها لذيذة فيها حرارة وحماسة .

وظل سانين يذرع غرفته جيئة وذهابا لايريد أن يفكر فى شىء ، وهو يصفر لحنا من الالحان . كان راضيا عن نفسه كثيرا من الرضا .

- ١٧ -

قال سانين لنفسه وهو يرتدي ملابسه في الغد : « سأنتظر الضابط حتى الساعة العاشرة ، فاذا لم يصل حتى ذلك الحين ، كان في وسعه أن يبحث عني في المدينة » .

ولكن الالمان ينهضون من نومهم في وقت مبكر من الصباح ، فما ان اقتربت الساعة من التاسعة حتى جاء الخادم يقول لسانين : « ان السيد الملازم فون ريشتر يطلب مخاطبته » .

فأسرع سانين يرتدي ردنجوته ، وأمر بادخال الضابط .

فما كان أشد دهشة سانين حين رأى أن السيد فون ريشتر شاب صغير يكاد يكون صبيا . وقد حاول الصبي أن يضفي على تعبير وجهه ، الذي لم تنبت لحيته بعد ، شيئا من الصرامة ، ولكنه لم يظفر بذلك ، ولا استطاع ان يخفي اضطرابه . حتى أنه حين جلس على كرسي تعثر بسيفه وكاد يسقط على الارض .

قال الصبي لسانين ، في كثير من التردد والتلعثم ، انه جاء ، باسم رفيقه البارون فون دنهوف ، يطلب الى السيد فون زانين ، ان يقدم اعتذاراته عن الكلمات التي تفوه بها أمس في حق البارون فون دنهوف ، فاذا رفض السيد فون زانين أن يعتذر ، فان البارون فون دنهوف يطلب المنازلة .

فأجاب سانين بأنه لاينوي ابدا ان يعتذر ، وانه مستعد للمنازلة .

عندئذ سأله الملازم ، بتردد أيضا ، عن الشخص الذي يختاره شاهدا ، وعن الساعة التي يريدها ، وعن المكان الذي يمكن أن تجرى فيه المباحثات .

فأجاب سانين بأن في وسع السيد فون ريشتر ان يعود اليه بعد ساعتين ، فيكون اثناء ذلك قد وجد شاهدا . أجاب سانين بذلك وهو يتساءل بينه وبين نفسه : « أين يمكن أن أبحث عن شاهد ؟ »

نهض فون ريشتر ، وحيا ، ولكنه وقف عند عتبة الباب كمن وخزه ضميره والتفت الى الشـــــاب الروسي وصرح له بأن رفيقه البارون فون دنهوف قد اعترف بأنه أساء صنعا أمس ، وبأنه يكتفي باعتذارات خفيفة .

فأجاب سانين بأنه لايفكر فى امكان تقديم اى اعتذار ، خفيف أو ثقيل ، لانه لايرى أنه قد أساء .
فقال السيد فون ريشتر وقد اشتدت حمرة وجهه :
ـ اذن تتبادلان طلقات الرصاص وديا .
فسأله سانين قائلا :
ـ كيف ؟ هل تريد ان نطلق الرصاص فى الهواء .
فدمدم الملازم يقول وقد بلغ غاية الاضطراب :
ـ لا ، لم ارد أن اقول ذلك . ولكننى قلت لنفسى : مادام الامر بين اناس محترمين ...
وسكت ثم أضاف يقول فى جرارة :
ـ سادبر هذه التفاصيل كلها مع الشاهد الذى ستختاره .
وخرج من الفرقة فجاة .
ما ان مضى الضابط حتى تهاوى سانين على كرسى ، واخذ يتامل الارض ـ « مامعنى هذا كله ؟ ماهذا المجرى الذى جرته حيالى فجاة ؟ » . امحى الماضى ، وامحى المستقبل ... ولم يشعر سانين الا بشيء واحد ، هو أنه فى فرنكفورت ، وانه سينازل .
وفجاة تذكر عمة له قد التاث عقلها وجنت ، فكانت ترقص وهى تغنى أغنية تنادى فيها ضابطا ، تدعوه « حبيبها » ، أن يجيء ويراقصها .
وانفجر سانين ضاحكا ، وردد اغنية عمته « تعال أرقص معى أيها الضابط ياحبيبى » .
ولكنه مالبث أن قال لنفسه : « ولكن يجب أن أعمل ، ليس ثمة وقت أضيعه ! »
وارتعش حين رأى أمامه بانتاليون يحمل بيده بطاقة .
ـ قرعت الباب عدة مرات ، فلم تجبنى ، فظننت انك غائب ...
قال الايطالى هذا ، وقدم الورقة لسانين :
ـ انها من الانسة جيما .
تناول سانين الورقة على غير شعور ، وفضها وقرأها .
لقد كتبت اليه جيما تقول انها قلقة شديدة القلق منذ أمس ، وانها ترجوه ان يأتى اليها باسرع ما يمكن .
واضاف بانتاليون يقول ، وهو يعرف ماتضمنته الرسالة :
ـ ان الانسة جيما مضطربة غير هادئة . وقد سألتنى أن أجيء اليك لاعرف أين أنت من الامر ، وان أصحبك الى البيت .

فتأمل سانين العجوز الايطالى ، واخذ يفكر . ان فكرة قد راودته ، فكرة مضحكة ، مستحيلة ... « ولكن لم لا ؟ » .

قال بصوت عال :

ـ أيها السيد بانتاليون

فارتعش العجوز ، وأغرق ذقنه فى ربطة عنقه ، ونظر الى سانين

ـ هل سمعت بما وقع أمس ؟

عض بانتاليون شفتيه وهز ذؤابته الضخمة ، وقال :

ـ اعرف كل شيء .

ذلك ان ايمليو لم يستعجل شيئا حين عاد كما استعجل ان يقص على العجوز ماحدث .

ـ ها ... اذن انت على علم بالامر ! طيب ... لقد زارنى ضابط منذ لحظة . ان وقح الامس يدعونى الى النزال ... وقد قبلته المبارزة ؛ ولكن ليس لى شاهد ، فهل تريد أن تكون شاهدى ؟

ما ان سمع بانتاليون هذا الكلام حتى اختلج اختلاجة عصبية ، ورفع حاجبيه حتى غارا تحت شعره المتدلى .

ـ هل لابد قطعا من أن تقتتلا ؟

ـ قطعا . يستحيل على أن أتراجع ، والا لوثت اسمى طوال حياتى .

ـ هه .. واذا رفضت أنا أن أكون شاهدك ، فهل تجيء بشاهد غيرى ؟

ـ طبعا ... لاننى لا أستطيع الاستغناء عن شاهد

فمال بانتاليون برأسه نحو الارض ثم قال :

ـ ولكن اسمح لى بسؤال ياسيد سانينيو : الا تظن أن هذه المبارزة تلقى ظلا على سمعة فتاة ؟

ـ لا أظن ... ومهما يكن من أمر ، فلا حيلة لنا فى منعها .

واختفى وجه بانتاليون اختفاء تاما فى ربطة عنقه . ثم صاح فجأة وهو يرفع رأسه :

ـ ولكن ماذا يعمل ذلك السيد كلوبيريو الهمام ؟

ـ هو ؟ لاشيء ...

ـ هه

وهز بانتاليون كتفيه ، علامة الاحتقار . ثم قال بصوت مضطرب :

ـ على كل حال يجب أن أشكر لك أنك عددتنى رجلا محترما .

انك اذ تفعل ذلك تبرهن على انك أنت نفسك رجل محترم . وسأفكر الان فيما اقترحته على .

ـ ليس امامنا متسع من الوقت أيها السيد شيـ ٠٠ شيبا ٠٠ تولا .

ـ ولكننى لا اطلب الا ساعة من تفكير ٠٠ ان الامر يتصل بمستقبل ابنة اولياء نعمتى ٠ ومن واجبى اذن ان افكر ٠٠ سأوافيك بجوابى بعد ساعة ، بعد ثلاثة أرباع الساعة ٠

ـ طيب . انا فى انتظارك .

ـ والان ، ماهو الرد الذى يجب أن احمله الى الانسة جيما ؟

فتناول سانين ورقة وكتب عليها :

« اطمئنى بالا ، سأجيء اليك بعد ثلاث ساعات ، وسأقص عليك كل شيء . وانى لأشكر لك تلطفك من اعماق قلبى » .

ثم طوى الورقة ومدها الى بانتاليون .

فتناولها العجوز ، ودسها فى جيبه بعناية ، وهو يكرر قوله : « بعد اقل من ساعة » : فلما وصل الى الباب التفت فجأة ، وعاد ادراجه راكضا نحو سانين ، فتناول يد الشاب وشدها الى صدره ، وصاح وهو يرفع عينيه الى السماء :

ـ ايها الفتى النبيل ، ايها القلب الكبير ، اسمح لعجوز ضعيف ان يشد على يمناك العظيمة .

قال بانتاليون ذلك ، ثم وثب الى وراء ، وضرب الهواء بيديه ، وخرج من الغرفة .

تابعه سانين بنظره ، ثم تناول جريدة ، واخذ يقرا . الا ان عينيه كانتا تتابعان السطور عبثا ، فانه لم يفهم مما يقرؤه شيئا .

- ١٨ -

بعد ساعة دخل الخادم على سانين مرة أخرى ، وقدم اليه بطاقة قديمة من بطاقات الزيارة قرأ فيها سانين : بانتاليون شـــيباتولا الشاريزى ، مغن فى بلاط صاحب السمو الملكى دوق مودين .

وما أن خرج الخادم حتى دخل بانتاليون · كان قد غير ملابسه من قمة الراس الى اخمص القدمين . انه يلبس الان رداء أسود محمرا ذا حواش ، وصدرة بيضاء من قماش مخدد تتلوى عليه سلسلة من النحاس المذهب ، وعلى السروال الملتصق بالجسم يهبط خاتم ثقيل من العقيق · وهو يمسك بيمناه قبعة سوداء من وبر الارنب ، ويمسك باليسرى قفازين كثيفين من جلد الوعل . وكان قد وسع وبطة عنقه أكثر مما يوسعها عادة ، وغرز فى تخريمة قميصه المنشى دبوسا تعلوه قطعة من حجارة كريمة . وكان خنصره يزدان بخاتم ذى طرفين يتشابكان حول فص ملتمع .

وكان جســـمه كله تفوح منه رائحة هى مزيج من كافور وعفن ومسك . وكان ما اصطنعه من هيئة الجد والخطورة خليقا بأن يفجا نظر اى انسان مهما يكن غير مبال .

فقام سانين يستقبله ·

ــ سأكون شاهدك .

قال الايطالى ذلك ، وانحنى امام سانين نصفين ، مباعدا مابين الكعبين على طريقة الراقصين .

ــ جئت أتلقى أوامرك . هل تنويان أن تقتتلا حتى الموت ؟

ــ لماذا حتى الموت ، أيها السيد العزيز شيباتولا ؟ لاشىء فى الدنيا يمكن أن يحملنى على التراجع ، ولكننى لست ممن يحبون شرب الدماء ... انتظر على كل حال . ان الشاهد الذى اختاره خصمى سيصل بعد قليل . وحين يصل سانتقل الى غرفة اخرى ، وأدع لكما أن ترتبا شروط القتال . وثق أننى لن انسى مدى الحياة هذه الخدمة التى تقدمها لى ، وانى لأشكرك من أعماق قلبى .

ــ الشرف قبل كل شىء .

قال بانتاليون ذلك ثم جلس على كرسى دون ان ينتظر ان يدعوه الى الجلوس . ثم أضاف قوله :

ـ لئن لم يفهم ذلك البائع كلوبريد واجبه ، لئن خاف وذعر ، فبئس مافعل ... أنه امرؤ لايساوي قلبه قرشا واحدا ... حسبي ان أقول فيه هذا ! اما عن شروط المبارزة ، فأنا شاهدك ، ومصالحك مقدسة عندي !! ... حين كنت أسكن مدينة بادو كانت الحامية تضم فرقة من سلاح الفرسان ، وكنت على علاقات طيبة بعدد من الضباط ... وكثيرا ماتناقشت مع أميركم تاربوسكى ... هل ذلك الشاهد آت بعد قليل ؟

ـ انتظر وصوله بين لحظة وأخرى

قال سانين ذلك ، ثم صاح يقول وقد القى نظرة على الشارع :

ـ هاهو ذا !

دخل الملازم الشاب ، مضطربا محمر الوجه فى هذه المرة أيضا ..

وتولى سانين تقديم الشاهدين أحدهما للآخر :

ـ السيد ريشتر ، ملازم ، السيد شيباتولا ، فنان .

وقد دهش الملازم قليلا حين رأى العجوز . ترى ما كان عساه يقول لو عرف أن هذا الفنان يتعاطى فن الطبخ ايضا !..

واصطنع بانتاليون هيئة شخص كأنه لم يكن له فى حياته كلها من عمل الا ان يهيىء المبارزات . وأسعفته فى هذا ذكريات مهنته على خشبة المسرح . فنهض بمهمة الشاهد كما لو كان يمثل دورا .

نظر الشاهدان أحدهما فى الآخر دون أن يقولا فى أول الامر شيئا .. ثم لم يلبث بانتاليون أن قطع الصمت وهو يعبث بخاتمه العقيقى قائلا :

ـ نعم .. لنتحدث فى الشروط !

فأجابه الملازم :

ـ نعم .. لنتحدث فى الشروط ، ولكن وجود احد الخصمين ...

فقال سانين :

ـ أننى أترككما وحدكما أيها السيدان .

ثم حياهما ودخل الى حجرة النوم وأقفل بابها بالمفتاح .

ارتمى سانين على سريره واخذ يفكر فى جيما .. ولكن كلمات الشاهدين نفذت اليه من الباب الموصد .

كان الشاهدان يتحدثان بالفرنسية ، وهى لغة يسلخانها سلخا ويمزقانها تمزيقا بلا رحمة ولا شفقة ، كل على طريقته .

تحدث بانتاليون مرة أخـــرى عن فرســـان بادو ، وعن الامير تاربوسكى . وتحدث الملازم عن « الاعتذارات الخفيفة » وعن «طلقات الرصاص المدوية » .

اما العجوز الايطالى فانه لم يشأ أن يسمع شيئا عما يســـمى « اعتذارات » . وما كان أشد الهول الذى شعر به سانين حين أخذ العجوز يتكلم فجأة عن آنسة بريئة فى ريعان الصبا يساوى خنصرها وحده كل ما الدنيا من ضباط .. وكان بانتاليون يردد مرة بعـــد مرة : هذا عار .. هذا عار ...

ولم يجب الضابط بشىء فى اول الامر ، ولكن صوته مالبث أن ارتجف من شدة الغضب ، فقال انه لم يأت الى هنا ليتلقى دروسا فى الاخلاق .

فقال له بانتاليون :

ـ انه ليفيد من فى سنك دائما أن يسمع الحقيقة !

واصبحت المناقشة بين الشاهدين عاصفة عدة مرات . واخيرا ، بعد مشاجرة دامت ساعة كاملة ، انتهيا الى وضع الشروط التالية :

« يقتتل البارون فون دنهوف والسيد سانين غدا فى الســـاعة العاشرة ، وذلك فى الغابة الصغيرة القريبة من هاناو . تكون المسافة بين المتبارزين عشرين خطوة . ولكل منهما الحق فى أن يطلق طلقتين عند صدور الاشارة . والسلاح مسدس غير مخطط وليس بذى انتفاض مزدوج » .

خرج السيد فون ريشتر ، وجاء بانتاليون يفتح باب غرفة سانين منتصرا مظفرا ، وبعد أن أبلغه نتيجة المباحثات ، أخذ يردد :

ـ مرحى أيها الروسى ، مرحى جيوفانتو .. لسوف تكون الغالب .

وبعد بضع دقائق كانا يدخلان معا الى مقهى روزيلى .

كان سانين قد طلب الى بانتاليون ، أثناء الطريق ، أن يبقى امر المبارزة سرا بينهما . وكان جواب المغنى العجوز على هـــذا ، أن قال ، وهو يرفع اصابعه الى السماء ويغمض عينيه نصف اغماضة :

ـ هذا سر ... هذا سر ...

كان بانتاليون يمشى فى خفة كانه ارتد شابا فى ميعة الصبا . ان هذه الاحداث قد نقلته ، رغم انها مزعجة ، الى تلك الفترة من حياته ، التى كان فيها يرمى هو نفسه القفاز .. على المسرح طبعا ! ...

كان ايمليو يترقب وصول سانين منذ اكثر من ساعة . فلما وصل الفتى الروسى خف ايمليو اليه ، وأسر في أذنه خلسة ان امه لا تعرف شيئا عما جرى امس ، وأن من الخير الا يشار الى شيء من ذلك امامها ، وأنه قد أمر بالذهاب الى السيد المدير على عادته ليعمل تحت اشرافه ، ولكنه قرر ألا يذهب ، متظاهرا بأنه ذهب ..

قال الصبي ذلك كله دفعة واحدة فى بضع ثوان ، ثم مال برأسه على كتف سانين ، فقبله قبلة دافقة ، وهرول الى الشارع .

وفى المقهى سارعت جيما الى سانين ، وارادت ان تكلمه ، ولكن الكلمات لم تسعفها ، وارتعشت شفتاها وتأرجحت عيناها يمنة ويسرة تحت اهدابها المسبلة . فبادر سانين يطمئن الفتاة قائلا ان المسألة قد حلت ، وان عليها الا تفكر فى هذا الامر بعد الآن .

سألته جيما :

ـ ألم يجيء اليك احد اليوم ؟

ـ بل جاءنى شاب ... فتباسطنا فى الامر ، واغلقنا الموضوع على مايرضى الجميع ...

فعادت جيما الى مكانها وراء البسطة .

قال سانين بينه وبين نفسه :

ـ انها لم تصدق ...

ومضى الى الغرفة المجاورة ، فلقى فيها السيدة ليونور . ان السيدة لينور قد شفيت مما بها من صداع ، ولكنها مازالت متعبة وقد استقبلت السيد سانين بكثير من اللطف ، الا انها نبهته الى أنه سيسأم اليوم صحبتها ، فهى تشعر بأنها عاجزة عن الترويح عنه .

جلس سانين الى جانب السيدة لينور ، فلاحظ أن جفنيها محمران محتقنان .

ـ مابك ياسيدة لينور ؟ هل بكيت ؟

ـ شت .. لا تتكلم بصوت عال .

همست بهذا وهى تشير برأسها الى الدكان الذى فيه ابنتها .

ـ ولكن لماذا بكيت ؟

ــ آه ياسيد سانين ، انا نفسي لا أعرف لماذا بكيت ؟
ــ هل اغضبك احد ؟
ــ أبدا ... وانما شعرت بنفسي فجأة حزينة .. لقد فكرت في جيوفاني باتيستا .. وفي صباي .. ما اسرع مامضي هذا كله ! . انني أشيخ ياصديقي ، ولا أستطيع ان أذعن لهذه الفكرة ... احس أنني مازلت كما كنت .. ومع ذلك فقد جاءت الشيخوخة ، جاءت ..

ورأى سانين دموعا في عيني السيدة لينور .

ــ هل يدهشك هذا الاعتراف ؟ ولكنك ستشيخ أيضا يا صديقي وستعرف مدى المرارة التي يكابدها المرء حين يدلف الى الشيخوخة

أراد سانين أن يسري عن السيدة روزيلي بالكلام عن ولديها اللذين يعيش فيهما صباها ، بل لقد حاول أن يجري الامر مجرى الهزل قائلا : « لعل السيدة روزيلي تحب ان تطرى » ، ولكنها رجته جادة ان يكف عن المزيد من المزاح ، فاكتشف سانين لاول مرة في حياته ان هناك حزنا يستحيل على المرء ان يواسيه وان يزيله : الا وهو حزن المرء الذي يشيخ ويدرك انه يشيخ . وقال في نفسه : يجب ان أكمها تهدأ من تلقاء ذاتها .

واقترح سانين على السيدة لينور ان يلعبا الورق « هذا كل ما استطاع ان يجده ليسري عنها » ، فوافقت على الاقتراح ، ولاح عليها انها استردت رباطة جأشها .

واستمر اللعب حتى حان وقت الغداء ، ثم استؤنف بعد الغداء واشترك فيه بانتاليون شخصا ثالثا . ما كانت ذؤابة المغني القديم اكثر تهدلا على جبينه في يوم من الايام منها الان ، ولا كانت ذقنه اعمق غرقا في ربطة عنقه يوما من الايام منها الان . وكانت كل حركة من حركاته ينبع منها وقار نبيل متجمع على نفسه . كان يستحيل على المرء ان يراه دون ان يتساءل فورا : ترى ماهو ذلك السر الذي يحرص هذا الرجل على اخفائه بمثل هذه الضراوة ؟

هذا سر .. هذا سر ..

وظل بانتاليون طوال النهار ينتهز المناسبة تلو المناسبة ليبرهن لسانين على مايكنه له من احترام عظيم : حين جلسوا الى المائدة قدم له الطعام قبل ان يقدمه للسيدتين ؛ وفي اثناء اللعب كان يتنازل له عن دوره ، ولا يسمح لنفسه بأن ينافسه . وكان يصرح في كل مناسبة بأن الشعب الروسي اكثر شعوب الارض بسالة وشهامة وبطولة .

وكان سانين يقول بينه وبين نفسه حين يسمع هذا الكلام :

ـ ممثل قديم !
وقد فوجيء الفتى خاصة بموقف جيما منه . انها الان لاتتحاشاه ... بالعكس ... انها تاتي في كل لحظة فتجلس على مقربة منه ، وتصغى الى مايقوله ، وتنظر اليه ، ولكنها تتجنب ان تشـــارك في الحديث ، فمتى وجه اليها الكلام نهضت من مكانها ومضت الى الغرفة المجاورة ، فترة قصيرة من الوقت ، ثم عادت تجلس في ركن من الاركان ساكنة مشغولة البال قلقة .
وقد انتبهت السيدة لينور الى حالة ابنتها فسألتها مرتين عمـا بها ، فكانت جيما تجيبها بقولها :
ـ لا شيء ... انت تعرفين أنني أكون هكذا احيانا .
وكانت الام تقول مؤيدة :
ـ نعم .. صحيح ..
هكذا انقضى النهار طويلا ، لا مملا ولا خفيفا ولا كئيبا ولا مرحا .
ولو كان سلوك جيما غير هذا السلوك ، فلربما لم يستطع سانين أن يقاوم اغراء الظهور بمظهر البطولة ، او لربما استسلم لحـــزن شديد في هذه الليلة التي تسبق فراقا لعله لا لقاء بعده .
فلما لم تتح له فرصة التحدث الى جيما مرة واحدة ، اكتفى بأن يقوم الى البيانو قبل احتساء قهوة المساء ، وأن يعزف بعض الالحان خلال ربع ساعة من الزمان .
وعاد ايمليو متأخرا ، ثم لم يلبث أن خرج ، ليتحاشى ان يوجه اليه اى سؤال عن السيد كلوبر .
وآن لسانين أن يستأذن ، وفيما هـــو يودع جيما تذكر فراق لنسكى وأولغا في قصة أوجين أونيجين التي كتبها بوشكين . فشد على يد الفتاة شدا قويا ، وحاول أن ينظر اليها وجها لوجه ، ولكنها حولت رأسها قليلا وسلت أصابعها من يده .

— ٢٠ —

حين نزل سانين عن الرصيف كانت السماء قد ملأتها النجوم . ما اكثر النجوم فى السماء ! كبيرة وصغيرة ، صفراء وحمراء وزرقاء وبيضاء تلتمع متزاحمة متكاثفة ، وكأنها تتبارى فى ارسال الاشعة ... ولم يكن فى قبة السماء قمر ، غير أن كل شيء كان يتميز واضحا فى هذا الضوء المظلم .

وتابع سانين سيره الى آخر الشارع ... انه لايشتهى أن يعود الى غرفته بالفندق .. انه يحس بالحاجة الى البقاء فى الهواء الطلق ثم عاد ادراجه ، وقبل أن يصل من سيره الى دكان الحلوى رأى احدى النوافذ تفتح ، ولم يكن بالغرفة نور ، ثم لاح له فى اطارها المظلم شكل امرأة ، ولم يلبث ان سمع صوتا يناديه :

— سيد ديمترى .

فركن نحو النافذة .

انها جيما .

استندت بكوعيها على النافذة ، ومالت الى الخارج ، وقالت بصوت وجل :

— سيد ديمتري ، هناك شيء ظللت طوال النهار اهم ان اعطيك إياه .. ثم لم اجرؤ . والان وقد رايتك على غير قصد ، قلت لنفسى لاشك أنه القدر ...

قالت ذلك ثم انقطعت عن الكلام . لقد عجزت عن متابعة الكلام .

وفجأة ، فى قلب هذا السكون المطبق ، وتحت سماء لا تعكرها سحابة واحدة ، هبت ريح قوية .. هب أعصار بلغ من العتف أن الارض ارتجت ، وتأرجح ضوء النجوم الواهن واهتز . انها زوبعة ، التف هواؤها الساخن كأنه لفح النار ، فعقف رءوس الاشجار وزعزع الجدران ، وهز الشارع كله .

واطاحت الريح بقبعة سانين ، وغدائر جيما السوداء .

وكان راس الفتى على مستوى الحاجز الذى تستند اليه جيما ، فتشبث بالحاجز على غير ارادة منه ، فأمسكته جيما من كتفيه بيديها واهوت برأسها على وجهه ..

ودامت قرقعة الاجراس والضوضاء الفظيعة مايقرب من دقيقة ، ثم ابتعدت الجلبة كأنها سرب طيور هائلة ، وعاد الجو ساكنا سكونا عميقا .

ورفع سانين راسه . فرأى وجه الفتاة وقد بلغ في اضطرابه وذعره من الجمال ماجعل قلبه ينهار . ما أروع هاتين العينين الواسعتين الوجلتين المتقدتين . ومر الفتي بشفتيه على الضفائر التي بعثرتها الريح فوق صدره ، وتمتم :

— جيما .

— ماالذى وقع ؟ اهي عاصفة ؟

سألت جيما هذا السؤال وهي تنظر حولها ، دون أن ترفع ذراعيها العاريتين عن كتفي سانين .

— جيما .

ارتجفت الفتاة ، والقت نظرة على الغرفة ، ثم مدت يدها الى صدرها بحركة سريعة ، فأخرجت وردة ذابلة مدتها الى سانين .

— كنت أريد أن أعطيك هذه الوردة .

ورأى سانين أنها الوردة التى استردها من الضابط أمس .

ولم تلبث النافذة أن أغلقت ، فأصبح سانين لايميز وراء زجاجها المعتم شيئا البتة .

وعاد الى فندقه بغير قبعة ، حتى انه لم يلاحظ ان الريح قد أطارتها .

- ٢١ -

ولم ينم حتى الفجر .
لقد أدرك سانين ، أثناء العاصفة المفاجئة ، ان جيما ليست الا فتاة فحسب ، وانه ليس معجبا بها فحسب ، فذلك كله يعرفه منذ مدة طويلة ، وانما أدرك انه يحبها .
لقد نفذ الحب الى قلبه .
وعليه الان أن يقتتل مع الضابط . انه يوجس مشاعر حزينة . ماذا لو قتل ؟ ثم الى اى شيء يمكن ان يؤدى هذا الحب الذى يحمله لفتاة مخطوبة لشخص آخر ؟
آ ... ان هذا الخطيب ليس ممن يحسب لهم حساب . ان سانين يحس ان جيما ستحبه ، وانها لعلها تحبه منذ الان . ولكن ما نهاية هذه الامور كلها ؟
كان يذرع غرفته جيئة وذهابا ، ثم يجلس ، فيتناول ورقة ، ويكتب عليها بضعة أسطر مايلبث أن يشطبها .
وكانت جيما لاتزال تتراءى له فى اطار النافذة المظلمة ، تحت ضياء النجوم ، فى الاضطراب الذى ألقتها اليه العاصفة اللافحة ، فيرى ذراعيها المرمريتين ، ذراعيها اللتين تشبهان ذراعى آلهة من آلهات الاولمب ... وأحس على كتفيه ثقل هاتين الذراعين ...
تشمم سانين الوردة التى اهدتها اليه جيما . وخيل اليه ان اوراقها الذابلة تنشر عطرا أذكى من عطر جميع الورود .
وعليه الان أن يعرض نفسه للموت . ترى أيعود من القتال حيا ؟ أليس جائزا أن يرجع منه مشوها ؟..
لم يستلق سانين على فراشه ، وانما نام على الاريكة دون ان يخلع ملابسه .
وأحس بيد تلامس كتفه .
ففتح عينيه فاذا هو يرى بانتاليون
قال العجوز الايطالى :
ــ انه ينام كالاسكندر الاكبر غداة معركة بابل
ــ كم الساعة الان ؟

ـ السابعة الا ربعا . والطريق الى هاناو يستغرق ساعتين . ويجب أن نصل الى المكان اول من يصل . كذلك شأن الروس دائما . وقد استأجرت أحسن عربة بمدينة فرنكفورت .

ـ إين المسدسات ؟

ـ سيأتي بها صاحبنا .. وقد تعهد أيضا باصطحاب طبيب .

كان سانين يحاول أن يحافظ على مستوى الشجاعة التي اظهرها امس . ولكن حين جلس فى العربة مع سانين ، وصفق سوط الحوذى ، وجرت خيل العربة سريعة ، تبدلت حال الصديق القديم للفرسان البيض بمدينة بادو . انه الان مضطرب ، خائف بعض الخوف .. أن شيئا فيه قد انهار كما ينهار جدار ردىء البناء .

ـ ماذا نفعل هنا ياسيدى ؟

كذلك صرخ بانتاليون بصوت منتحب وهو يمسك شعره بكلتا يديه واضاف يسأل نفسه :

ـ ماذا تفعل هنا أيها العجوز الاحمق ، أيها المجنون ؟

وقد دهش سانين قليلا فى أول الامر ، ثم أخذ يضحك وهو يحيط العجوز بذراعه احاطة خفيفة . قال :

ـ لقد صب الخمر ، ولابد أن نشربه !

ـ نعم نعم سنتجرع هذا الكأس . هذا لاينفى أنني مجنـــون ، مجنون ، مجنون ... لقد كنا في غاية الهدوء ، وكانت الامور كلها تجرى على مانحب ... وفجاة تاتاتا ... ترا تاتا ..

قال سانين وهو يحمل نفسه على الابتسام :

ـ كما يفعل الجموع فى الاوركسترا .. ولكن الذنب ليس ذنبك على كل حال .

ـ أعرف ذلك . ولكنني تصرفت فى الامر تصرف مجنون ! يالى من شيطان ، يالى من شيطان !

قال بانتاليون ذلك وهو يهز ذؤابته ويتنهد .

وكانت العربة تجرى ، وتجرى .

ان الصباح جميل جدا ، وشوارع فرنكفورت أخذت تدب فيهـا الحياة ، وكانت تبدو نظيفة مريحة اكثر من ذى قبل ، وإن نوافذ البيوت ليلمع زجاجها . وما أن اجتازت العربة الحاجز حتى صوت سرب من أسراب القبر كأنه جوقة فى أعالى السماء التى لم تضئها الشمس بعد .

وفجأة ، عند منعطف الطريق ، وراء شجرة عالية من اشــجار

المحور ، ظهرت لهما قامة يعرفانها تقدمت بضع خطوات ثم توقفت .
أنعم سانين النظر وصاح :
ـ رباه ! انه ايمليو ! هل يعرف عن الامر شيئا ؟
فهتف الايطالي حزينا يائسا :
ـ الم أقل لك انني مجنون ؟ لقد ظل هذا الصبي الشقي يتحكك بي طوال الليل ، حتى اعترفت له في هذا الصباح بكل شيء .
قال سانين لنفسه : « أهذا هو السر عندك اذن ياپانتاليون ؟ » .
وما لبثت العربة ان أدركت ايمليو ، فأوقفها سانين ، ونادى « الصبي الشقي »
فتقدم ايمليو بخطا مترنحة ، وكان ممتقع اللون شاحبا كما رآه سانين يوم أصيب بالاغماء ... كان لا يستطيع الوقوف على قدميه .
سأله سانين :
ـ ماذا تفعل هنا ؟ لماذا لم تبق في البيت ؟
فقال ايمليو بصوت مرتعش وهو يرفع يديه متوسلا :
ـ اسمح لي أن أرافقك !
كانت أسنانه تصطك كأنه في حمى .
ـ لن أضايقك ، خذني معك .
ـ اذا كنت تشعر نحوي بشيء من الاحترام والحب فعد الى البيت أو الى مخزن السيد كلوبر . ولا تبح لاحد بشيء مما تعرفه ، وانتظر عودتي .
فقال ايمليو متأوها :
ـ انتظر عودتك ؟
ثم أضاف وقد اشتد اضطرابه :
ـ ولكن اذا ...
فقاطعه سانين وهو يشير الى الحوذي :
ـ ايمليو ، ايمليو ، فكر فيما تفعل .. أطعني يا صغيري .. ارجوك ... عد الى البيت ... الم تقل انك تحبني ؟ اذن .
قال سانين ذلك ومد يده اليه ، فوثب الصبي وتناول يد سانين ، فشدها الى شفتيه وهو يشهق باكيا ، ثم هرب خلال الحقول في اتجاه فرنكفورت .
قال پانتاليون :
ـ وهذا قلب نبيل أيضا !
فألقى عليه سانين نظرة استياء .

فلطا العجوز بأعماق العربة ، كان يحس انه مذنب . وازدادت دهشته شيئا بعد شيء : هو صحيح اذن انني شاهد مبارزة ؟ انا الذي دبرت كل الخطوات ، واستاجرت العربة ، وغادرت منزلي الهادىء في الساعة السادسة من الصباح ؟

وفيما هو مضطرب هذا الاضطراب اخذ يشعر بآلام في فخذيه .

فراي سانين ان يبث فيه شيئًا من الشجاعة ، واحسن اختيار الوسيلة الي ذلك .

ـ أين بسالتك التي كانت لك أيها السنيور شيباتولا ؟ أين الجراة القديمة ؟

فردد بانتاليون يقول بصوته الاجش :

ـ الجراة القديمة .. نعم الجراة القديمة .. مازلت أحتفظ بها .

واسترد بانتاليون شعوره بأنه انسان محترم ، وأخذ يتحدث عن مهنته ، عن الاوبرا ، عن المغنى التينور جارشيا .. فما وصل الي هاناو الا وقد عاد اليه عزمه .

لاشيء في هذا العالم أقوى من الكلام ولا اضعف .

- ٢٢ -

المكان الذي يجب أن تتم فيه المبارزة يبعد عن هاناو مسافة ربع ميل

ووصل الرجلان أول من وصل ، كما توقع ذلك بانتاليون . فتركا العربة عند طرف الغابة ، وتوغلا في الظل الكثيف الذي يخيم بين الاشجار المكتظة .

انتظرا مايقرب من ساعة .

ولم يشعر سانين بطول الوقت . كان يتمشى في الممر الضيق مصغيا الى تغريد العصافير ، ويتابع بنظره طيران الفراشات الصغيرة ، ويحاول الا يفكر في شيء البتة ، على عادة اكثر الروس في مثل هذه الظروف

وفجأة رأى شجرة من أشجار الزيزفون منقلبة على الارض ، قد حطمها اعصار البارحة في أغلب الظن ، فاضطره منظرها الى أن ينكر : ان الشجرة تموت ، وأوراقها تجف .

قال سانين :

ـ أهذا نذير شؤم ؟

ثم اخذ يصفر ، وقفز فوق شجرة الزيزفون ، وتابع سيره في الممر الضيق .

كان بانتاليون ، يتململ ويتذمر ، ويهاجم الالمان ، ويدلك ظهره ويديه . وكان الانفعال يجعله يتثاءب ، فكان التثاؤب يضفي على وجهه الصغير المتجعد معنى مضحكا . وكان سانين لا يمتنع عن الضحك ، حين ينظر اليه ، الا في كثير من العناء .

وسمع الرجلان ، آخر الامر ، قرقعة عجلات على الطريق الكبرى . فصاح بانتاليون قائلا :

ـ وصلا .

وأصاخ بسمعه الى الضجة ، ونصب قامته باختلاجة عصبية ، سرعان ماردها الى برودة الصباح .

ـ بررر .. البرد شديد .

كانت أعشاب الارض وأوراق الاشجار مبللة بندى غزير ، وكان

الدفء قد بدأ يتسلل الى الغابة .

وما هي الا لحظات حتى وصل الضابطان ، يتبعهما رجل سمين قصير ، يدل وجهه على البرودة ويوشك أن يكون نائما . انه طبيب الفرقة

كان الطبيب يحمل باحدى يديه ابريقا من الاجر مملوءا بالماء ، وقد علق على كتفه اليسرى كيسا متدليا يحتوى على أدوات الجراحة وعصائب التضميد . كان يسهل على من يراه أن يدرك انه قد ألف هذا النوع من النزهات ، وان هذه السفرات الصباحية كانت تدر عليه اكثر أرباحه ، فانه يتقاضى عن كل مبارزة ثمانية دنانير ، يدفع كل من المتبارزين نصفها .

وكان السيد فون ريشتر يحمل صندوق المسدسات .

وكان السيد فون دنهوف يحمل بيده سوطا يديره ، وكان واضحا انه يفعل ذلك من قبيل الاناقة .

قال سانين بصوت خافت :

ــ اسمع ياباتاليون ، اذا سقطت ... وكل شيء يمكن أن يحدث ... فان في جيبى لفافة صغيرة فيها زهرة .. فارجوك أن تأخذ هذه الزهرة ، وان تحملها الى السنيوريتا جيما ! هل فهمت ؟ أتعدني بانك ستنفذ وصيتى ؟

فنظر اليه الايطالى العجوز نظرة أليمة ، وهز رأسه كأنه يقول « نعم » . ولكن لا يعلم الا الله هل فهم حقا مايطلبه منه سانين !

وتبادل الخصمان والشاهدان التحية المتعارف عليها . وكان الطبيب هو الشخص الوحيد الذى لم يكلف نفسه حتى عناء تقطيب الحاجبين ، فقد جلس على العشب وهو يتثاءب كأنه يقول : « انا لا أهتم كثيرا بهذا التصنع . »

واقترح السيد فون ريشتر على السيد شيباتولا أن يختار الموقع .. فأجابه بلغة متعثرة :

ــ افعل ماترى ، وسأنظر في الامر .

فبادر السيد فون ريشتر يبحث في الغابة عن مكان للمبارزة ، فاكتشف فسحة تغطيها الازهار ، فقاس المسافة بخطاه ، وعين الحدود بقطعتين من الخشب حطبهما في ذلك المكان نفسه ، ثم اخرج المسدسين من الصندوق ، وجلس على كعبيه فشحنهما بالرصاص . أى حمل نفسه كثيرا من العناء .. وكان لاينقطع عن تنشيف العرق المتصبب من وجهه بمنديله الابيض .

وكان بانتاليون يتابعه خطوة خطوة، ويبدو عليه انه يعاني بردا شديدا وفي اثناء ذلك كان الخصمان يقف كل منهما بعيدا عن الاخر ، كأنهما تلميذان عاقبهما المعلم : فهما في حرون .

وجاءت اللحظة الفاصلة .

فاتجه السيد فون ريشتر الى بانتاليون قائلا له انه بصفته أكبر الشاهدين سنا ، يقع عليه ، وفقا لقوانين المبارزة ، عبء دعوة الخصمين ، قبل اطلاق الاشارة «واحد، اثنين ، ثلاثة ..» الى المصالحة واضاف الضابط يقول :

ـ ان هذا الاقتراح يرفض دائما ، ولكن السيد شيباتولا يحرر نفسه من التبعة ، بمعنى من المعاني ، حين يقوم بهذا الاجراء الشكلي وقد جرت العادة ان يضطلع بهذه المهمة « الشاهد الحيادى » ، اما وانّنا يعوزنا الشاهد الحيادي ، فانني اتنازل عن هذه الميزة لزميلي المحترم ان بانتاليون الذى كان قد استطاع أن يحتمى وراء دغل من الادغال حتى لا يرى الخصم ، لم يفهم فى أول الامر شيئا من خطاب السيد فون ريشتر ، خاصة وان الضابط الشاب يلثلث الكلام من أنفه .

ولكن بانتاليون مالبث أن وثب من مكانه ، وتقدم الى أمام بسرعة ، وضرب على صدره عدة مرات ، وهو يصيح بصوت أبح :

ـ هـ .. هـ .. يا .. هيا .. هذا عمل وحشى . حرام أن يقتتل شابان مثلكما .. هذا من وسوسة الشيطان .. هيا .. هيا ..

فسارع سانين يقول :

ـ أرفض اية مصالحة .

ـ وأنا كذلك .

عندئذ اصدر فون ريشتر أمره الى بانتاليون الذى طاش صوابه :

ـ اطلق الاشارة اذن « واحد ، اتنين ، تلاتة . »

فهرع الايطالى بسرعة شديدة الى ماوراء الدغل ، ومن هناك ، وقد انحنى نصفين ، واغمض عينيه ، وأشاح بوجهه ، أعول يقول فاغرا فاه : واحد ، اتنين ، تلاتة .

فاطلق سانين رصاصة قبل خصمه ، ولكنه اخطـــأه ، ووثبت الرصاصة مفرقعة على جذع شجرة .

وأطلق البارون رصاصة بعد سانين فورا ، ولكنه اطلقها على جانب وفي الهواء . فعل ذلك عامدا ...

وساد صمت خلال لحظة . ولم يتحرك احد . وزفر بانتاليون زفرة خفيفة .

قال دنهوف :
ــ هل يجب أن اكمل ؟
ــ لماذا أطلقت فى الهواء ؟
ــ هذا أمر لا يخصك !
ــ وهل ستطلق فى الهواء أيضا ؟
ــ ربما .. لا أدرى !
ــ معذرة أيها السيدان ، معذرة ، معذرة ، لايجوز للمتقاتلين ان يتبادلا الكلام فى موقع المبارزة .. فذلك مخالف للقواعد
قال سانين :
ــ أنا أتنازل عن طلقتى الثانية .
ورمى مسدسه الى الارض .
فصاح دنهوف يقول :
ــ وأنا أيضا .
ورمى سلاحه الى الارض ، ثم أضاف :
ــ الآن استطيع أن أعترف بأننى اخطأت في ذلك اليوم !
وبعد تردد قصير ، مد يده بحركة غامضة نحو سانين ، فاقترب الفتى الروسى من خصمه وصافحه .
ونظر الشابان كل منهما فى الآخر وابتسما ، ثم احمرت خدودهما كليهما
فصاح بانتاليون كالمسعور ، وهو يضرب كفا بكف :
ــ مرحى ، مرحى
وهرع مرتعشا نحو الدغل ، بينما كان الطبيب الذى جلس على جذع منقلب ، ينهض من مكانه ، ويفرغ جرة الماء ، ويتجه نحو الطريق بخطا رخوة .
قال فون ريشتر :
ــ أرضي الشرف وانتهت المبارزة .
وبعد أن تبادل سانين التحية مع الضابطين ، ركب عربته . انه ، دون أن يشعر بلذة ، يحس أنه أخف مما كان ، كمن فرغ من جراحة أجريت له . ولكن شعورا بالعار كان يعكر عليه صفوه في الوقت نفسه . لقد كانت المبارزة تمثيلا ، وكذبا ، وتواطؤا ، وتفاهة .. كأنها مزاح طالب أو ضابط . وتذكر الطبيب البارد القلب ، وتذكر ابتسامته وهو ينظر اليه بعد المبارزة ، وقد أوشكت ذراعاهما أن تتعانقا .. وتذكر بانتاليون وهو ينقد الطبيب أربعة دنانير .. لا لا .. لقد كان ذلك كله خاليا من الجد .

كان سانين لا يشعر بشيء من الاعتزاز • ومع ذلك ، فما الذي كان فى وسعه ان يفعله ؟ أكان يستطيع الا يرد على وقاحة الضابط الشاب ؟ أكان يستطيع أن يتصرف تصرف كلوبر ؟ ياسلام !!

لقد دافع عن جيما •• لقد انتقم لها •• نعم •• نعم •• ومع ذلك لايزال فى نفسه ضيق •

أما بانتاليون فقد شعر بالنصر ، واستولى عليه الزهو فجأة •• ما من قائد منتصر ينظر حوله بمثل هذا الرضا !

فكان يثنى على سلوك سانين أثناء المبارزة فى كثير من النشوة والحماسة • وكان يسميه بطلا •• وهو يصم أذنيه عن اعترافات الشاب • وكان يشبهه بتمثال من المرمر أو البرونز •• بتمثال القائد فى « وليمة بطرس » •

واعترف بأنه ، شخصيا ، قد شعر بشيء من الانفعال •

ــ ولكننى أنا فنان ، عصبى .. أما أنت .. فانت ابن الثلوج وصخور الجرانيت •

وأصبح سانين لا يعرف ماذا يعمل حتى يهدىء هذا « الفنان العصبى المزاج » الذى كانت حمياه تزداد أوارا •

وعلى مقربة من المكان الذى التقيا فيه بايمليو منذ ساعتين ، خرج اليهما ايمليو مرة أخرى من وراء الاشجار كان الصبى يلوح لهما بقبعته صارخا صرخات الفرح ، وظل يثب حتى وصل الى العربة ، فلم ينتظر أن تقف الخيل ، بل قفز الى داخل العربة من الباب ، معرضا نفسه للتدحرج بين العجلات ، فلما صار فى الداخل ، شد نفسه الى سانين ، وقال له نفسا واحدا •

ــ أأنت حى ؟ ألم تجرح ؟ سامحنى ! لم أطعك •• لم أذهب الى فرنكفورت . لم أقو على ذلك . انتظرتك هنا .. احك لى ! ما الذى حدث ؟ هل قتلته ؟

فلم يستطع سانين أن يهدىء روع الصبى وأن يجلسه الى جانبه الا فى كثير من العناء •

واخذ بانتاليون يشرح للصبى تفاصيل ماوقع ، فى تدفق كبير ، وفرح ظاهر ، ولم ينس أن يشبه سانين بتمثال القائد ! ثم نهض ، وباعد ما بين قدميه حتى لا يختل توازنه ، وشبك ذراعيه ، ملقيا نظرة متعالية من فوق كتفه ، ومثل وقفة القائد سانين •

فكان ايمليو يصغى الى حديثه اصغاء تعبد ، وكان فى بعض الاحيان يقاطعه بصرخة تعجب ، أو ينهض عن مكانه بقفزة سريعة

ليقبل صديقه البطل .
جرت العربة فى شوارع فرنكفورت حتى توقفت أخيرا على باب الفندق الذى يسكنه سانين .
وفيما كان سانين يجتاز الدور الثانى ومعه صديقاه ، رأى فى عتمة الممر قامة امرأة محجبة الوجه تسرع الخطا ، فلما اصبحت أمامه أبطأت ، وترددت ، ثم زفرت ، وهرعت الى الشارع ، فاختفت فيه ، على دهشة من الخادم . قال الخادم لسانين :
ـ ان هذه السيدة تنتظركم منذ أكثر من ساعة !

عرف سانين أنها جيما ، وميز عينيها وراء الحرير الكثيف ، حرير الحجاب الملون الذى أسدلته على وجهها . فقال مستاء وهو يوجه السؤال الى ايمليو والى بانتاليون الذين كان لا يزال يقف وقفة المنتصر :
ـ هل الآنسة جيما على علم بشيء .
فاحمر وجه الصبى واضطرب وقال :
ـ اضطررت أن أقص على أختى كل شيء .. وكانت قد حزرت الامر . واي ضير فى هذا الان ، ما دام كل شيء قد انتهى على خير ، ومادامت قد رأتك سليما لم يمسسك سوء ؟
فأشاح سانين بوجهه ، ثم أضاف بلهجة آسفة :
ـ هذا لا يمنع أن كليكما ثرثار لا يؤتمن على سر .
ثم دخل الى غرفته وجلس على كرسى .
قال له ايمليو متوسلا :
ـ لا تغضب .. أرجوك .. أضرع اليك .
ـ طيب
والحق ان سانين لم يكن غاضبا .. ولم يسئه ، فى قرارة نفسه ، أن تعلم جيما بما جرى .
ـ كفى الآن .. اتركاني وحدى .. أنا فى حاجة الى النوم ..
صاح بانتاليون :
ـ فكرة عظيمة .. انك لتستحق الراحة حقا أيها السيد النبيل . هيا بنا يا ايمليو ، على رءوس الاصابع ..
حين قال سانين انه يريد أن ينام كان يتعلل بهذه الحجة ليتخلص من رفيقيه ، فما ان أصبح وحيدا حتى شعر بتعب شديد حقا . انه لم يغمض له جفن طوال الليلة البارحة . فارتمى على فراشه ، وسرعان ما نام .

ـ ٢٣ ـ

نام سانين عدة ساعات متواصلة • ورأى فيما يرى النائم أنه يقتتل مرة أخرى في مبارزة ، ولكنه يتنازل في هذه المرة السيد كلوبر • وقد رأى على شجرة تظلل رأس خصمه ببغاء لها رأس بانتاليون ، تردد بصوت أخن : توك ، توك ، توك ، توك ، توك •

ثم سمع سانين مرة أخرى هذه الضربات متميزة :

ـ توك توك توك •

ففتح عينيه ، ورفع رأسه • كان هنالك من يطرق الباب : فصاح:

ـ أدخل •

فدخل الخادم ، وانباه أن بالباب سـيدة تحرص على أن تراه حتما •

قال سانين بينه وبين نفسه : انها جيما

ولكن السيدة لم تكن جيما ، بل أمها •

وتهاوت السيدة لينور على كرسي ، وأجهشت بالبكاء •

ـ ماذا بك يا سيدتي العزيزة الطيبة ؟

قال سانين ذلك ، وجلس على مقربة منها ، وهو يشد على يديها في تودد •

ـ ما الذي حدث ؟ هدئي روعك ، أرجوك !

ـ يا سيد ديمترى •• أنا •• أنا تعيسة •• تعيسة جدا •

ـ أنت تعيسة ؟

ـ كل التماسة • وهل كان في وسعي أن أتوقع هذا ؟ لقد وقـع فجاة •• كبرق خاطف في سماء صاحية •

كانت السيدة لينور تتنفس بصعوبة •

ـ ولكن ما الذي حدث ؟ قولي ! هل تريدين كاسا من الماء ؟

ـ شكرا •

قالت السيدة لينور ذلك ، ومرت بمنديلها على عينيها ، وعادت تبكي • قالت :

ـ انني أعرف كل شيء •• كل شيء •

ـ كل شيء ؟ ماذا تريدين أن تقولي ؟

ـ كل ما وقع اليوم ٠ وأعرف السبب أيضا ! لقد تصرفت أنت تصرفا فيه نبل وشهامة ومروءة ! ولكن يالها من ظروف سيئة ! ليتهم اتبعوا نصيحتي ! لقد عارضت فى أمر تلك الرحلة الى سودن !

الواقع أن السيدة لينور لم تعارض فى أمر تلك النزهة أبدا ، ولكنها تتخيل فى هذه اللحظة أنها أوجست عندئذ شرا ٠٠

ـ وأنا أجيء اليك الآن لانني اعتقد أنك رجل تفيض نفسك نبلا ، وأنك صديق ، رغم أنني لا أعرفك الا منذ خمسة أيام ٠٠ ولكنني أرملة ٠٠ وحيدة ٠٠ ان ابنتي ٠

وخنقت الدموع صوتها ٠

لم يعرف سانين ما عسى أن يكون معنى هذه البداية ٠

ـ ابنتك ؟

ـ ابنتي جيما « قالت السيدة روزيلي ذلك متأوهة ، دون أن تسحب من فمها منديلها المبلل بالدموع » ، ابنتي جيما صرحت لى اليوم أنها أصبحت لا ترغب فى السيد المدير خطيبا لها ، وقد كلفتني أنا بأن أنقل الى السيد كلوبر قرارها هذا ، فى هذا اليوم نفسه !

لم يستطع سانين ، حين سمع هذا الكلام ، أن يكبح ارتعاشة خفيفة سرت فى جسمه ٠٠ انه لم يكن يتوقع هذا النبأ ٠

وأردفت السيدة لينور تقول :

ـ هذا عار للاسرة ! ٠٠ لم يسمع أحد بمثل هذا فى حياته : خطيبة تفسخ الخطبة ٠ ثم ان هذا العمل ، يا سيد ديمترى ، ليس بالنسبة الينا عارا فحسب ، بل هو أيضا دمار ! ٠٠

قالت السيدة لينور ذلك ، وفتلت منديلها حتى صار كالكرة ، كأنما لتخفى فيه كل ألمها ، وأردفت تقول :

ـ أصبحنا لا نستطيع أن نعيش مما يدره علينا الدكان ٠٠ والسيد كلوبر رجل غنى منذ الآن ، وله فى عمله « آمال عراض » ٠ ولماذا أصبحت لاتريده ؟ ألانه لم يدافع عنها ؟ انني أسلم لك بأن ذلك لم يكن جميلا منه ٠ ولكن السيد كلوبر رجل مرن ٠٠ وصفته التجارية تسمح له أن يستهين بعمل صبياني بسيط يصدر عن ضابط صغير لايعرفه ٠٠ أين الاساءة فى هذا ياسيد ديمترى ؟

ـ عفوك ياسيدة لينور ٠٠ أحس أنك تأخذين على سلوكي الذى سلكت !

ـ أنا ؟ لا ! هذا شيء آخر ٠٠ أنت رجل عسكرى ، كسائر الروس ٠

ـ العفو !

ــ ثم انك غريب ، سائح •• وأنا شاكرة لك كل الشكر ••
قالت السيدة روزيلى هذا دون ان تصغى الى سانين .
كانت تغص من الالم ، وتقوم بحركات مضطربة ، وتنشر مرة أخرى منديلها ، لتجفف به أنفها • كان سهلا على المرء أن يلاحظ من مجرد تعبيرها عن حزنها ، انها لم تخلق تحت سماء شمالية .
وكيف تريد للسيد كلوبر أن ينجح فى تجارته اذا كان يبارز زبائنه؟ ليس من الحكمة ان نطالبه بشيء من هذا ! .. وهاندا الآن اكلف بطرده ! ولكن من أى شيء سنعيش ؟ كنا فى الماضى نحتكر صناعة حلوى ومربب الفستق •• أما الان فجميع بائعي الحلوى يصنعون ما نصنع ! فكر فى كل ما سيقوله الناس فى المدينة من هذه المبارزة !
هل تخفى فضيحة كهذه الفضيحة ؟ وفوق هذا خطبة تفسخ ! هذه فضيحة كبرى ، فضيحة كبرى ! انجيما فتاة جميلة وهى تحبنى كثيرا ، ولكنها عنيدة ، لا يصعب عليها أن تخرج على رأى الناس •• وأنت الشخص الوحيد الذى يمكن أن يكون له تأثير فيها ••
ازدادت دهشة سانين حين سمع هذا الكلام فقال :
ــ أنا ، ياسيدة لينور ؟
ــ نعم ، ليس هناك غيرك • أنت وحدك تستطيع أن تردها الى صوابها • أنت رجل ذكى عالم شهم •• وقد دافعت عنها ، فستصدق كل ما تقوله لها •• يجب عليها أن تطيعك •• لقد عرضت حياتك للخطر فى سبيلها ! ستقنعها بخطأ رأيها .. وقد سبق ان انقذت حياة ابنى ، فأنقذ ابنتى ! •• لقد أرسلك الله الينا •• أتوسل اليك راكعة !
قالت السيدة لينور هذا ، ونهضت عن كرسيها نصف نهوض ، كأنما لتركع على الارض •
فأمسك بها سانين :
ــ سيدة لينور ، ماذا تصنعين ؟
فتشبثت السيدة لينور بيديه تشبثا متشنجا ، وهى تقول :
ــ هل تعدنى ؟
ــ ولكن يا سيدة لينور •• مهلك لحظة •• كيف تريدين أن ••
ــ لا ، لا ... عدنى ، اذا كنت لا تريد أن اموت بين قدميك !
لم يعرف سانين ماذا يفعل ! هذه أول مرة يقف فيها أمام الدم الايطالى وهو يغلى ويفور . قال :

ـ سأفعل كل ما تريدين . سأكلم الآنسة جيما .
فلما سمعت السيدة لينور هذا الوعد صرخت من الفرح .
فاضاف سانين يقول :
ـ ولكننى لا اضمن النتيجة ، طبعا ...
فقالت السيدة لينور ضارعة :
ـ لا تضن علي بمساعدتك ! لا تضن علي بمساعدتك ! لقد وعدتنى ! وستنجح ! انا لا استطيع أن افعل شيئا أنا . لقد أصبحت لا تصغى الى كلامى ولا تطيعنى .
فسألها سانين بعد لحظة من صمت :
ـ هل صرحت لك تصريحا جازما قاطعا بأنها لا تريد أن تتزوج السيد كلوبر ؟
ـ قطعت فى الامر بسكين ... انها صورة أبيها جيوفانى باتيستا ... انها رهيبة !
ـ رهيبة ؟ الآنسة جيما رهيبة ؟
ـ نعم انها شيطان ... ولكنها فى الوقت نفسه ملاك ! لسوف تطيعك ... ستأتى الينا حالا ، اليس كذلك ؟ تعال حالا يا صديقى العزيز ، تعال حالا يا صديقى الروسى الكريم !
ونهضت السيدة لينور نهوضا قويا وتناولت فى الوقت نفسه رأس الفتى .
ـ هأنذا أباركك كأمك .. أعطنى الان قليلا من الماء !

قدم سانين للسيدة روزيلى كأسا من الماء ، ووعدها بشرفه أن يلحق بها دون ابطاء ، وشيعها حتى الشارع ، ثم عاد الى غرفته ليستسلم لدهشته :
« ها هى ذى الحياة قد بدأت تعصف كزوبعة ! » .

لم يحاول ان يحلل مشاعره ، ولا أن يغوص الى ما يقوم فى نفسه . ودمدمت شفتاه تقولان على غير ارادة منه : « ياله من يوم ! شيطانة ! ... وعلى انا أن أقدم لها النصح ! وأى نصح ؟ ... »

ودار رأسه ... وفوق الاعصار من الاحساسات الكثيرة والافكار المتمزقة التى تحاصره ، كانت صورة جيما تحلق بغير انقطاع ، منقوشة فى ذاكرته الى الابد ، كما رآها فى تلك الليلة اللافحة ، تسرى فيها كهرباء ، على حافة تلك النافذة المظلمة ، تحت ضوء النجوم المزدحمة !

اقترب سانين من بيت السيدة روزيلي بخطا مترددة . كان في قلبه وجيب شـــديد ، حتى انه كان يحس ضرباته ويسمعها تحت أضلاعه .

ماذا يقول لجيما ؟ وبماذا يبدأ ؟

ودار في البيت بدلا من أن يدخل الى الدكان . فالتقى في حجرة المدخل بالسيدة لينور ، التي سرت بمجيئه سرورا عظيما ، على شيء من التخوف في الوقت نفسه .

قالت بصوت خافت وهي تشـد على يديه بكلتا يديها واحدة بعد أخرى :

ـ لقد انتظرت مجيئك . اذهب الى الحديقة . انها هناك . ولا تنس انني أعقد عليك رجائي كله !

ومضى سانين الى الحديقة .

كانت جيما جالسة على مقعد في ممر بين الاشجار ، ترفع من سلة كبيرة أمامها أنضج ثمار الكرز وتضعها في طبق .

وكانت الشمس تميل الى الغروب . كانت الساعة قد تجاوزت السادسة ، والاشعة الكبيرة المائلة التي ترسلها الشمس وتغرق بهـا الحديقة كان فيها من الارجوان أكثر مما فيها من الذهب .

وكانت أوراق الاشجار تتهامس في بعض الاحيان بصوت خافت على غير تعجل ، وكان بعض النحل لايزال يدندن متواثبا من زهرة الى أخرى ، وفي بعيد كانت يمامة تسجع سجعا رتيبا لا يكل .

ان جيما قد وضعت على رأسها تلك القبعة نفسها التي وضعتها للذهاب الى سودن .

فنظرت الى سانين من تحت الجناح المطوى من قبعتها ، ثم مالت على السلة التي أمامها من جديد .

وقد تمهل سانين في خطاه حين اقترب من جيما ، فلما أصبح أمامها سألها قائلا :

ـ لماذا ترفعين هذه الثمار ؟

فلم تستعجل الفتاة الاجابة عن سؤاله ، ثم قالت أخيرا :

ـ هذه الثمار أنضج من الاخرى ، فنحن نصنع منها مربى ، ونصنع بالاخرى فطائر .
قالت جيما ذلك وزادت خفض رأسها ، بينما ظلت يدها اليمنى التى تحمل كرزتين معلقتين فى الهواء بين السلة والطبق .
ـ هل تسمحين لى ان اجلس الى جانبك ؟
ـ بكل سرور .
قالت الفتاة ذلك ، وأفسحت له مكانا ، فجلس قربها .
سأل الفتى نفسه « بم أبدا ؟ » ، ولكن الصبية ما لبثت ان اخرجته من الحرج ، اذ سألته :
ـ هل اقتتلت اليوم فى مبارزة ؟
قالت ذلك ، ورفعت نحوه وجهها مخضبا بحمرة شديدة من الاضطراب والخجل ، ولكن عينيها كانتا تفيضان بمعانى الشكر .
ثم أضافت :
ـ وتبدو مع ذلك هادئا هذا الهدوء كله !؟ .. اليس للخطر من وجود عندك اذن ؟ ..
ـ ولكننى لم اتعرض لاى خطر . وقد جرت الامور كلها على أيسر صورة ! ...
فرفعت جيما اصبعها وحركتها امام عينيها من يمين الى شمال ومن شمال الى يمين . هذه حركة ايطالية .
ـ لا ، لا ، لا تقل هذا . لن تخدعنى . لقد قص على بانتاليون كل شىء .
ـ وهل تصدقين ما قصد بانتاليون ؟ ألم يشبهنى بتمثال القائد ؟
ـ ربما كان تعبيره عن عواطفه مضحكا ... ولكن عواطفه نفسها ليست مضحكة .. لا ولا سلوكك .. وكل هذا فى سبيلى أنا ، سبيلى ! لن انسى هذا ما حييت .
أؤكد لك يا آنسة جيما ...
ـ لا ، لن أنساه ماحييت .
قالت ذلك وهى تؤكد على كل مقطع من كلامها ، وتثبت بصرها فى وجه الفتى من جديد ، ثم حولت رأسها .
أصبح لا يرى فى تلك اللحظة الا جانب وجهها ، فتراءى له انه لم يبصر فى حياته وجها كهذا الوجه جمالا ، لا ولا شعر بما يشعر به الآن .
سأل نفسه : « والوعد ؟ » . ثم قال لها بعد لحظة من تردد :

ـ يا آنسة جيما
ـ نعم ؟
ولم تحول وجهها نحوه ، بل استمرت تخرج ثمار الكرز من السلة ... كانت تمسك الثمرة بأطراف أصابعها ، من ذيلها ، في رفق ، مباعدة ما بين الاوراق .
الا ما اروع الثقة الجميلة في هذه الكلمة « نعم ؟ » .
ـ ألم تحدثك امك بشيء عن ... ؟
ـ عن ماذا ؟
ـ عن !
فلما سمعت جيما هذا الكلام القت بثمار الكرز الى السلة ، وسألته :
ـ هل كلمتك أمي ؟
ـ نعم .
ـ ماذا قالت لك ؟
ـ قالت لي أنك .. انك قررت فجأة أن تغيرى .. ما انعقدت عليه نيتك من قبل ..
مالت جيما براسها على الارض مرة أخرى ، حتى أختفى وجهها كله تحت قبعتها ، فاصبح لا يرى منها الا عنقها اللين الرخص كأنه ساق زهرة .
ـ اي نية تقصد ؟
ـ نيتك ... فيما يتعلق ... بمستقبلك
ـ تريد ان تقول : بشأن السيد المدير ؟
ـ نعم .
ـ هل قالت لك أمي انني لا اريد ان اتزوجه ؟
ـ نعم .
تحركت جيما ، فاهتز المقعد ، وانقلبت السلة على الارض ، فتدحرجت بعض الثمار ... وانقضت دقيقتان أو ثلاث دقائق في صمت .
ـ لماذا حدثتك أمي في هذا ؟
أصبح سانين لا يرى من جيما آلا ياقتها ، والا حركة صدرها وقد ازدادت شدة .
ـ لماذا حدثتني أمك في هذا ؟ ... لانها تعتقد ، ما دمنا صديقين ، وما دمت ستشر فينني بثقتك ، انني استطيع أن أسدى اليك بنصيحة ، وأنك ستطيعينني ..

فانزلقت ذراعا جيما على ركبتيها ، واخذت تجعد ثنيات ثوبها ·· ثم قالت بعد لحظة من انتظار :

ــ وبماذا تنصحني ؟

لاحظ سانين أن أصابع جيما ترتعش فوق ركبتيها ، وانها تجعد ثوبها اخفاء لهذا الارتعاش ...

فوضع يده في رفق على أصابعها الشاحبة المرتعشة . وقال :

ــ لماذا لا تنظرين الى يا جيما ؟

فما لبثت أن دفعت قبعتها الى وراء ، ورفعت نحو سانين عينين واثقتين تفيضان بالشكر ، كما فعلت ذلك منذ لحظات .

وانتظرت أن يتكلم الفتى ·· ولكن سانين اضطرب أمام هذا الوجه الصادق ، وبهر ·· كان شعاع دافيء من شمس المساء يشرق على الوجه الايطالي ، وكان تعبير هـذا الوجه أكثر التماعا وتوهجا من الضياء نفسه .

قالت وهي تبتسم ابتسامة واهنة ، وترفع حاجبيها قليلا :

ــ سأتبع نصيحتك ياسيد ديمترى . فبماذا تنصحني ؟

ــ بماذا انصحك ؟ ان أمك ترى أن رفضك الزواج بالسيد كلوبر ، لا لشيء الا لانه لم يبرهن على شجاعته في ذلك اليوم ··

ــ لا لشيء الا هذا السبب ؟

قالت جيما ذلك ، ثم مالت الى أمام ، فتناولت السلة لتضعها على المقعد الى جانبها .

ــ ·· ليس بالتصرف الحكيم ·· وهذا قرار يجب أن تحسب نتائجه كلها ... ويظهر أن حالة أعمالكم تفرض على كل فرد من أفراد الاسرة واجبات ...

ــ انت تردد الآن راى أمي ... وانا اعرفه ... ولكن ما هو رايك انت ؟

ــ رأيي انا ؟

لم يستطع سانين أن يتم كلامه ، فقد شعر بغصة في حلقه ، حتى لكأنه يختنق . ثم قال في جهد :

ــ أعتقد أيضا ...

ــ انت ايضا ؟ أنت تعتقد ايضا ... ؟

ــ نعم ، أقصد ...

ولم يستطع سانين ، رغم جهوده ، أن ينطق بكلمة أخرى ·· قالت جيما :

ـ طيب ... ما دمت ، وانت صـديق ، تنصحني بالتراجع عمـا عزمت عليه ، فسأفكر في الامر ...

واصبحت جيما لا تعرف ماذا تفعل ، فأخذت ترجع الى السنة ما كانت قد فرزته من ثمار الكرز في الطبق .

ـ امي تعتقد انني ساطيعك ... والحق انني قد اتبع نصيحتك ..

ـ ولـكن ... اسمحي يا آنسة جيما ... انني أتمنى لو أعرف الاسباب التي دفعتك الى ...

ـ سأتبع نصيحتك .

قالت ذلك وقد تقطب حاجباها واصفر خداها وعضت على شفتها السفلى .

ـ لقد اسديت الي من الجميل ما يفرض علي واجب اطاعتك ... سأقول لامي انني سأفكر في الموضوع من جديد ... وها هي ذي آتية ! ...

كانت السيدة لينور قد ظهرت عند عتبة الباب المفضي الى الحديقة . كانت قد نفد صبرها ، فما تطيق المكوث في مكان . وكانت تقدر أن سانين لابد قد فرغ من مساعيه مع جيما منذ مدة طويلة ، رغم أن الحديث بينه وبينها لم يكن قد دام في الواقع اكثر من ربع ساعة .

فصاح سانين وكأنه يشعر بنوع من الذعر :

ـ لا ، لا ، ارجوك ... لا تقولي لامك شيئا بعد ... انتظري ... سأحدثك في الامر ، سأكتب اليك ... الى ذلك الحين لا تتخذي اي قرار ... انتظري رسالتي ...

ثم صافحها ونهض واثبا . فما كان أشد دهشة السيدة لينور ، حين مر أمامها ، فرفع قبعته مدمدما ببضع كلمات غير مفهومة ، ثم مضى واختفى .

اقتربت السيدة روزيلي من ابنتها ، وهي تقول لها :

ـ حدثيني ياجيما ، أرجوك ...

فلم تزد الفتاة على ان نهضت وقبلت أمها .. ثم قالت :

ـ هل لك ، يا أمي الحبيبة أن تمهليني في الجواب قليلا .. لن يطول انتظارك .. انتظريني الى غد .. أرجوك .. والى أن يأتي الغد أحب الا تتكلمي في هذا الموضوع ! آه ..

قالت جيما ذلك ثم اخذت تبكي فجاة من شدة الفرح .

وازدادت حيرة السيدة لينور : ان جيما تبكي ، ولكن وجهها لا يعبر عن شيء من الحزن ، بل هو الى الفرح أدنى .

ـ ما بك يا جيما ؟ أنت لا تبكين أبدا .. فما الذى بك اليوم ؟

ـ لا شىء يا أماه ، لا شىء ... عليك بقليل من الصبر ! يجب علينا أن ننتظر . لا تسأليتى عن شىء قبل أن يأتى الغد . ولنسرع الآن فى رفع ثمار الكرز قبل أن تغيب الشمس ...

ـ وهل تفيئين الى العقل ؟

ـ آ ... اننى عاقلة جدا .

وهزت جيما رأسها .

وأخذت تجمع ثمار الكرز باقات صغيرة ، وتحملها بحيث تخفى بها وجهها المحمر .

ولم تمسح دموعها التى جفت .

عاد سانين الى منزله راكضا .

كان يحس أنه لن يستطيع ان يفكر تفكيرا واضحا الا اذا خلا الى نفسه .

وفي الواقع ، ما ان جلس الى المنضدة في غرفته حتى أغرق وجهه في يديه ، وصاح قائلا : « أحبها ، أحبها ، أحبها حب جنون ! » وتأججت نفسه كلها كجذوة اخرجت من تحت الرماد .

وما هي الا لحظة حتى أصبح لا يستطيع أن يفهم كيف جلس الى جانبها وتحدث معها ثم لم يقبل طرف ثوبها ولم يقل لها ، كما يقول الشبان ، « انه مستعد لان يموت بين قدميها ! »

ان هذا اللقاء الاخير في الحديقة قد عين مصيره . وأصبح الان حين يفكر فيها لايتصورها منفوشة الشعر تحت ضياء النجوم ، بل يتصورها جالسة على المقعد في الحديقة ، تدفع قبعتها الى وراء ، وتنظر اليه تلك النظرة التي تفيض ثقة ، وترتعش ، وتسري في عروقها الرغبة في الحب .

وتذكر الوردة التي يحملها في جيبه منذ ثلاثة أيام ، فتناولها بيديه ، وحملها الى شفتيه ، بحماسة تحولت الى عذاب .

اصبح لا يستطيع أن يناقش ولا أن يفكر ولا أن يتبصر بالمستقبل . وانفصل عن ماضيه كله ووثب الى أمام . هجر الشاطىء الحزين ، شاطىء حياته العازبة المتوحدة ، وانغمر في نهر لامع فرح قوي ، وهو سعيد بذلك ، لا يريد أن يعرف الى أين يقوده هذا النهر ، ولا أن يتساءل هل يحطمه التيار على صخرة من الصخور .

ان الموجات الهادئة في قصة أوهلاند التي كان يهدهد نفسه بها منذ غير بعيد ، قد حلت محلها الان موجات عارمة جبارة .. والموجات تتراقص وتتواثب وتحمله في حركتها الصاخبة .

وتناول سانين ورقة فكتب الرسالة التالية دفعة واحدة دون أن يشطب كلمة واحدة :

« عزيزتي جيما !

« أنت تعرفين النصيحة التي كلفت بأن أسوقها اليك . تعرفين ما

تتمناه أمك ، وما كانت تنتظره مني . ولـــكن الامر الذي لا تعرفينه والذي أريد الان أن أكاشفك به هو أنني أحبك ، هو أنني أحبك الحب الجامح الذي يثور في قلب هذا حبه الاول ! لقد شبت النار في نفسي فجأة ، وبلغت من أوارها أنني لا أجد شيئا أقوله ! حين جاءت أمك الى ، كانت النار لا تزال غافية في قلبي – وآلا لكان واجب الشرف يقتضيني ان أرفض المهمة التي ندبتني أمك لها .. والاعتراف الذي ابوح لك به الآن هو اعتراف رجل شريف ... يجب أن تعرفي الشخص الذي يخاطبك . وبيننا ليس ثمة سوء تفاهم ! وها أنت ذي ترين أنني لا أستطيع أن أقدم لك نصيحة ... انني أحبك ، احبك ، احبك ، وهذا الحب يملأ عقلي وقلبي !! »

ديمترى سانين

وطوى سانين الرسالة ، وختمها ، وهم أن يقرع الجرس للخادم ، لولا أن غير رأيه ، قال لنفسه : « لا ، ليس هذا صوابا ، ليتني استطيع أن ابعث بالرسالة الى ايميليو ! »

ولكنه لا يســـــتطيع أن يذهب الى ايميليو في مخزن السيد كلوبر وان يلقاه بين المستخدمين الآخرين . ثم ان الوقت ليل ، واغلب الظن ان الصبي قد عاد الى بيته .

وفيما كان سانين يقلب هذه الافكار في رأسه ، تناول قبعته وخرج من الفندق ، فما ان اجتاز شارعا آخر حتى لمح ايميليو ، فسر بذلك سرورا عظيما . كان الصبي المتحمس يحمل تحت ابطه حقيبة ، ويمسك بيده لفافة ورق ، ويحث الخطا عائدا الى البيت .

قال سانين لنفسه « صحيح اذن لجميع العشاق نجما » ، ونادى الصبي .

فالتفت ايميليو الى الوراء ، وهرع الى سانين .

فأعطاه سانين الرسالة ، وطلب اليه أن يحملها الى جيما .

كان الفتى يصغي الى سانين اصغاء شديدا ، وسأله بلهجة جادة ذات دلالة :

– هل يجب الا يعلم أحد بذلك ؟

فقال سانين وهو يشعر بشيء من الخجل .

– نعم يا عزيزي الصغير ، يجب الا يعلم احد بذلك !

ثم ربت على خده . وأضاف :

– فان حملتك جوابا ، فائتني به ... أليس كذلك ؟ سأبقى في البيت .

قال ايمليو فرحا :
ـ اعتمد علي .
واسرع يبتعد .
وفيما هو ماض فى طريقه ، التفت مرة أخرى الى الوراء ، واشار برأسه .
عاد سانين الى غرفته ، وارتمى على المقعد دون أن يشعل الشمعة ، وشبك يديه وراء رأسه ، واستسلم لمشاعر الحب الاول التى لا حاجة بنا الى وصفها هنا ، فان من كابدها يعرف ما فيها من عذاب ولذة ، ومن لم يكابدها فلا سبيل له الى تصورها .
وشق الباب ، وامتد منه رأس ايمليو .
ـ جئتك بالجواب ... هو ذا .
قال الصبى ذلك بصوت خافت ، ولوح برسالة فوق رأسه .
فوثب سانين عن مقعده ، واختطف الرسالة من بين يدى ايمليو .

كان الهوى يملأ قلب سانين ويستبد به . لقد أصبح عاجزا عن التفكير فيما يجب وما لا يجب ، وكان عاجزا عن الاحتفاظ بسر حبه . فلو أنه كان قادرآ على التفكير لكبح جماح نفسه أمام هذا الصبى أخى جيما .
واقترب من النافذة ، وقرأ الاسطر التالية على ضوء فانوس الشارع :
« أرجوك ، أضرع اليك الا تأتى الينا غدا ، والا تظهر فى بيتنا طوال النهار . يجب ذلك ، يجب ذلك حتما . وبعدئذ ، تقرر كل شىء .. أعرف أنك لن تعصانى ، لانك ..

جيما

قرأ سانين البطاقة مرتين . آه كم بدا له خط جيما جميلا لطيفا ! وبعد بضع لحظات من تفكير ، نادى ايمليو بصوت عال . كان ايمليو قد أدار وجهه الى الجدار ، اظهارا للكتمان ، وجعل يخدد الجدار بأظافره .
فلما سمع صوت سانين يناديه ، هرع نحوه يقول :
ـ نعم .
ـ اصغ الي ! اذهب الى هناك ، هل تفهمنى ؟ اذهب الى هناك ، وقل انني سأفعل كل ما يطلب منى ... وأنت ماذا انت فاعل غدا ؟
ـ أنا ؟ لا شىء ... اذا ... كل ما تريد .
ـ طيب ... اذا استطعت ، تعال الى فى ساعة مبكرة من الصباح .

وسنذهب معا فى نزهة فى الحقول حتى المساء . هل يناسبك هذا ؟
اخذ الصبى يتواثب من الفرح لهذا الاقتراح . وقال :
نذهب معا ! نحن الاثنين ؟ اتنزه معك ؟ سآتى حتما !
ـ واذا لم يسمحوا لك أن تأتى ؟
ـ سيسمحون ..
ـ اسمع .. لا تقل هنالك اننى دعوتك لقضاء النهار كله .
ـ أأنا غبى الى هذا الحد ؟

قال ايمليو ذلك ، وقبل سانين فى حرارة ، ثم مضى ..
اخذ سانين يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولم يرقد الا فى ساعة متأخرة من الليل .
لقد استسلم لتلك المشاعر العذبة المعذبة فى آن واحد ، استسلم لتلك السكرات الفرحة التى تهاجم المرء غداة حياة جديدة .

وكان سانين سعيدا جدا بالفكرة التى راودته ، وهى ان يقضى النهار مع ايمليو . ان الصبى يشبه أخته . قال سانين بينه وبين نفسه :
ـ ان وجوده معى سيذكرنى بها !
والشىء الذى بهر سانين هو هذا الشىء المتبدل المباغت الذى تم فى نفسه . كان يبدو له انه أحب جيما دائما .. هذا الحب نفسه الذى يشعر به اليوم .

وصل ايمليو الى سانين في الساعة الثامنة من صباح الغد ، وهو يجر تارتاجليا بمقود .

لقد قال لاهله انه سيتنزه مع سانين حتى الغداء ، ثم يذهب الى المخزن .

وفيما كان سانين يرتدى ملابسه أخذ ايمليو يحدثه ، ولو بشيء من التردد والحق يقال ، عن جيما وعن خلافها مع كلوبر ، ولكن سانين لم يظهر اهتماما بحديثه ، بل بدا عليه التبرم بهذا الحديث ، فامسك ايمليو عن الكلام ، مظهرا بذلك انه ادرك تسرعه في الافضاء بما يحسن فيه التانى . ثم لم يشر بعد ذلك اشارة واحدة الى الموضوع ، وكان يصطنع هيئة التحفظ والوقار من حين الى حين .

وشرب الصديقان قهوة الصباح ، ثم مضيا الى طريق هاوزن سيرا على الاقدام ، وهاوزن هذه قرية صغيرة قريبة من فرنكفورت تحف بها الغابات ، ومنها ترى سلسلة جبال تاونوس كلها .

كان الجو جميلا ، وكانت الشمس تلمع وتتوهج ولكنها لا تلفح . وكانت انسام طرية تهمهم حينة بين أوراق الاشجار الخضراء ... وعلى الارض كانت تتخاطر ظلال سحب مدورة عالية كبيرة ، تتخاطر سريعة لا تلتقى بحاجز .

وما ان أصبح الشابان فى ظاهر المدينة ، حتى اخذا يسرعان الخطا فى الطريق الممهدة فرحين . فقطعا الغابات يسيران على غير هدى ، وتناولا غداء وافرا فى القرية ، ثم أخذا يصعدان فى الجبل مسرورين ، يعجبان بجمال المناظر ، ويتسليان برشق حجـــارة كانت تتواثب فى هبوطها وتتدحرج كأنها أرانب ، وظلا يلعبان هذه اللعبة الى أن مر تحتهما أحد المتنزهين ، فأخذ يشتمهما بصوت عنيف مهتز ...

واستلقيا بعد ذلك على الطحلب القصير الجاف ، الاصفر الضارب الى خضرة ، وشربا من البيرة ، وتسابقا فى العدو ، وتراهنا : من ترى يسبق ومن ترى يقفز قفزة اعلى .

واكتشفا صدى ، فأخذا يتناجيان معه ، ثم طفقا يغنيان ، ويلعبان

لعبة الاختباء ، وينادى كل منهما صاحبه بصراخ . وقد كافحا معا ، فقطعا بعض أغصان الاشجار ، وزينا قبعتيهما بأوراق نبات الخنشار ، حتى لقد رقصا بعض خطوات .

وكان تارتاجليا يشارك فى هذا كله فى حدود وسائله وقدراته . كان لا يرشق حجارة ، ولكنه كان اذا ركضا ركض ودار فى اثرهما كأنه دوامة ، وكان اذا غنيا نبح ، حتى لقد شرب البيرة حين شرباها ، اظهارا لحسن المرافقة ، ولكنه لم يكتم عنهما اشمئزازه من مذاقها . لقد تعلم هذا الفن من طالب المانى كان فى سالف الزمان صاحبه . ثم انه لم يكن يطيع ايمليو كثيرا ، ولم يكن يطيع صاحبه بانتاليون الا أقل من ذلك ايضا . فكان اذا سأله ايمليو أن « يتكلم » او أن « يقرأ » لا يزيد على أن يحرك ذيله وأن يمد لسانه وهو يطوى طرف اللسان .

وقد أتيح للشابين أثناء ذلك أن يتحدثا فى موضوعات فلسفية . فان سانين ، بصفته أكبر سنا من صاحبه وبصفته رجلا راشدا عاقلا ، قد جرى بالحديث عند أول النزهة الى الكلام عن القدر وعن المصير الانسانى ، ولكن المناقشة لم تستقر على هذه الافاق العالية مدة طويلة .

فقد وجد ايمليو أن سؤاله صديقه عن روسيا امتع من ذلك : كيف يتبارز المتبارزون هناك ، هل فى روسيا نساء جميلات ، هل اللغة الروسية صعب تعلمها ، ما هى المشاعر التى أحسها حين صوب اليه الضابط مسدسه ؟

وراح سانين ، من جهته ، يسأل الفتى عن أمه ، وعن أبيه ، وعن أعمال الاسرة عامة ، دون أن يأتى على اسم جيما بذكر ، رغم تفكيره فيها بغير انقطاع .

والحق انه لم يكن يفكر فى جيما بقدر ما كان يفكر فى الغد ، الغد المجهول الذى سيحمل اليه السعادة ، السعادة الكاملة .

كان يتراءى له أن ضبابا شفافا ناعما خفيفا يغشى فكره ، ووراء الضباب يتموج تموجا رفيقا وجه الهى فتى ، قد أفتر ثغره عن ابتسامة ، واسبل حاجبيه ، واصطنع القسوة ... وليس هذا الوجه وجه جيما ، بل هو وجه السعادة نفسها ...

ولقد دقت ساعته أخيرا ، فاختفى الحجاب ، وانفرجت الشفتان ، فاختفى وارتفع الحاجبان ، وظهرت الالهة ، وشع النور والفرح والنشوة ... الى غير نهاية .

ويفكر سانين فى ذلك اليوم ، يوم الغد ، فتغرق نفسه مرة اخرى فى القلق والانتظار .

ولكن هذا القلق لا يمنعه من أن يتناول مع ايميليو غداء جيدا .. الا أن ينبجس فى نفسه ، فى لحظات خاطفة ، من حين الى حين ، هذا الخاطر : « لو عرف احد ذلك !! »

لا ولا منعه قلق الانتظار من أن يلعب مع أيميليو لعبة القفز فوق الحصان ، فى الهواء الطلق ، وسط حقل من الحقول . فما كان أشد انصماقه حين كان يطير ، متباعد الساقين ، كالعصفور ، فوق ظهر ايميليو ، فاذا هو يسمع نباح تارتاجليا عنيفا مجنونا ، فيلتفت الى وراء ، فيلمح عند طرف الحقل ضابطين عرف منهما على الفورغريميه بالامس : انهما دنهوف وشاهده فون ريشتر .

كان كل من الضابطين قد وضع على عينه نظارته ذات الزجاجة الواحدة ، وأخذ ينظر ويبتسم .

فتوقف سانين فورا ، وخف يرتدى معطفه بسرعه ، وأمر ايميليو ان يفعل مثله ، وتابع الاثنان سيرهما فى الطريق .

فوصلا الى فرنكفورت فى وقت متأخر .

قال أيميليو وهو يودع سانين :

ــ سوف يؤنبونني ... ولكن لا بأس ... ما كان امتع هذا النهار الذى قضيته بصحبتك ! ...

وحين عاد سانين الى الفندق ، وجد بطاقة جاءته من جيما ، وفيها تضرب له موعدا فى الساعة السابعة من صباح الغد بحديقة من الحدائق العامة الكثيرة فى فرنكفورت .

ما اشد ما خفق قلب سانين ... وما كان أعظم سعادته باطاعة أوامر جيما فى غير تردد !

وما أروع الافراح التى يعده بها هذا الغد الفريد الذى لم يكن يحلم به ولكنه آت لا ريب فيه !

والتهم سانين بطاقة جيما بنظره مرة أخرى ! ما أطول وما ارشق ذيل الحرف مع الحرف الاول من اسمجيما ، الذى يزين أعلى الورقة ... انه يذكره باصابعها اللدنة الناعمة .

وتذكر فجأة أن شفتيه لم تلامسا بعد هذه اليد مرة واحدة...

قال فى نفسه : « ان الايطاليات ، على خلاف ما يظن الناس عامة ، ذوات عفة وقسوة ... وجيما أعف من غيرها أيضا وأقسى .

« آه أيتها الملكة ... أيتها الإلهة ... أيتها المرمر البكر الطاهر النقي ! ...

« ولكن الوقت آت ... وما غد ببعيد ! »

كان بفرنكفورت ، فى تلك الليلة ، رجل سعيد . ولقـــد نام سانين ، وقديما قال الشاعر :

أنام والقلب ساهر

كان قلبه يخفق خفقانا واهنا ، كجناح فراشة تعلقت بزهرة فى ضياء صيف .

استيقظ سانين منذ الساعة الخامسة من الصـــباح ، وما دقت الساعة السادسة حتى كان قد ارتدى ملابسه ، وفي السادســـة والنصف كان يطوف في الحديقة ، غير بعيد من الجناح الذى عينته له جيما في رسالتها .

كان الصباح هادئا فاترا أشهب . وكان يلوح من حين الى حين أن السماء ستمطر . ومع ذلك يمد المرء يده فما يشعر بشيء ، رغم أنه يســتطيع أن يميز على كم معطفه قطرات صـــغيرة كأنها لآلىء صغيرة .

والنسيم ساكن كما لم يسكن يوما من قبل .

والاصوات لا تطير بل تنتشر في الهواء . وفي بعيد ، يتكاثف بخار أبيض بطيء . والجو معطر بعبق البليحاء وشذى أزهـــــار الاكاسيا .

لم تفتح الدكاكين أبوابها بعد ، الا أن المرء يلمح في الشـــارع بعض المارة . ومن حين الى حين ، تســـمع قرقعة عجلات احـــدى العربات تجرى في الشارع وحيدة . ولم يكن في الحديقة أحـــد يتنزه .

كان البستانى ينظف ممرات الحديقة بالمشط على مهل . ومرت عجوز ملفعة بمعطف من جوخ اسود ، فخفق قلب سانين وتابعها ببصره رغم انه لا يمكن أن يتصور هذا المخلوق الاقصع على أنه جيما .

ودقت ساعة البرج السابعة ، فتوقف سانين قلقا مهموما .

« هل يمكن ألا تأتي ؟ »

وسرت في جسمه رعدة ، ثم سرت في جسمه رعدة أخرى . وسمع سانين ، وراءه ، وقع خطوات رشيقة ، وحفيف ثوب امرأة . فالتفت فاذا هي .

كانت جيما واقفة في الممر خلفه ، وقد ارتدت خمـــارا اشهب ووضعت على رأسها قبعة .

ألقت جيما نظرة طويلة على سانين ثم حولت رأسها الى الجهـــة الاخرى . فلما وصلت أخيرا قربه ، حثت خطاها ، وتقدمته .

قال سانين بصوت خافت :
ـ جيما
فهزت رأسها قليلا ومرت .
فتبعها .
كان قلبه يخفق ، وكانت ساقاه تترنحان من تحته .
تجاوزت جيما الجناح ، وسارت يمنة ، وانعطفت نحو الحوض الذى كان يستحم فيه عصفور ، ودارت حول مجموعة من أشجار الازدخلت ، ثم جلست على مقعد وراء الاشجار . انه مكان حريز مختبىء . فجلس سانين الى جانبها
وانقضت دقيقة لم ينطق أحد منهما خلالها بكلمة . ولم تلتفت جيما نحو صاحبها ، ولا نظر سانين الى وجه الفتاة ، بل كان ينظر الى يديها المضمومتين تحملان مظلة .
فيم كان يمكن أن يتحدثا ؟ أى اعتراف أبلغ من وجودهما معا فى هذا المكان ، أبلغ من لقائهما فى هذه الساعة من الصباح ، أبلغ من قرب أحدهما من الآخر هذا القرب ؟
ودمدم سانين اخيرا يقول :
ـ ألست غاضبة ؟
أى كلام يمكن أن يكون أغبى من هذا الكلام ! لقد شعر سانين بذلك ، ولكن الصمت قد انقطع فى أقل تقدير !
ـ أنا ؟ ... غاضبة ؟ ... لماذا ؟ . أبدا
ـ وأنت تصدقيننى ، أليس كذلك ؟ هل صدقت ما ... ؟
ـ ما قلته فى رسالتك ؟
ـ نعم !
خفضت جيما رأسها ، ولم تجب . وانزلقت المظلة من بين يديها، ولكنها تداركتها قبل أن تقع على الارض .
ـ نعم ، ثقى بما قلته لك ، صدقى كل ما كتبته لك .
لقد زال خجل سانين ، وأخذ يتكلم بحرارة . قال :
ـ اذا كان هناك شىء صادق فى هذا العالم ، فهو الحب العميق الذى احمله لك . اننى أحبك حبا جنونيا .
فالقت جيما عليه نظرة مختلسة ، وأوشكت المظلة ان تسقط من بين يديها مرة أخرى على الارض .
وصاح سانين :
ـ صدقينى ، صدقينى !

كان يضرع اليها ، ويمد يديه نحوها ، ولكنه لايجرؤ أن يلمس أصابعها . وأضاف يقول :

ـ كيف السبيل الى اقناعك ؟

فنظرت اليه جيما مرة أخرى ، ثم قالت له :

ـ ياسيد ديمترى ، حين جئت الى منذ ثلاثة ايام لتنصحنى ، الم تكن تعرف بعد ؟ الم تكن تشعر بعد ؟

ـ نعم ... لا ... اعنى ... كنت اشعر ولكننى لم اكن أعرف . لقد أحببتك منذ رايتك ..، ولكننى لم أدرك عندئذ ماذا اصبحت عندى ! قالوا لى انك مخطوبة ... وهل كان فى وسعى أن أصد امك ، وأن أرفض ماندبتنى له ؟ ثم اننى على كل حال قد قدمت النصح على نحو يتيح لك ان تدركى ...

وقرقعت خطوات ثقيلة ... انه رجل سمين بعض السمنة ، يحمل على ظهره كيس سفر ، فهو سائح من السواح . لقد خرج من وراء الاشجار ، فلما راى الشابين ، لم يتحرج من النظر اليهما ، على عادة الاجنبى ، ثم سعل ومضى ...

استانف سانين يقول منذ اختفى صوت وقع الخطوات :

ـ قالت لى أمك ان فسخ خطبتك فضيحة ، واننى سأكون فى هذه الحالة كمن سبب للاسرة الاقاويل ... وان من واجبى اذن أن انصحك بالتفكير فى الامر ، قبل أن ترفضى خطيبك السيد كلوبر .

قالت جيما ، وهى تمر بيدها على شعرها من جهة سانين :

ـ لا تسم السيد كلوبر خطيبى بعد الان ! اننى لن اكون زوجته . وهو يعرف ذلك .

ـ هل نقلت اليه ذلكُ ؟ متى ؟

ـ أمس ؟

ـ اليه شخصيا ؟

ـ اليه شخصيا ... لقد جاء امس الى بيتنا .

ـ جيما ! أانت تحبيننى اذن ؟

ـ اكنت أجىء الى هنا لولا ذلك ؟

قالت جيما هذا وهى تلتفت نحو سانين .

وسقطت يدا الفتاة على المقعد . فتناول سانين اليدين الساكنتين المنبسطتين ورفعهما يشد بهما على عينيه وعلى شفتيه .

ان الغشاوة التى كانت تحجب المستقبل بالامس قد طارت الان . هذه هى السعادة ! هذا هو وجهها المشرق !

ونظر سانين عندئذ الى جيما وجها لوجه ، بلا خوف . وكانت الفتاة تنظر اليه أيضا وقد خفضت حاجبيها . ان نظرة هاتين العينين المسبلتين ، ان هذا الضياء الواهن الذى تحجبه دموع عذبة ، لهو السعادة . كانت جيما لاتبتسم ، بل كانت تبتسم ... ابتسامة صامتة تضيء وجهها . وأراد سانين أن يضم الفتاة الى صدره ، ولكنها تحولت عنه ، وهزت رأسها ، دون أن يتغير وجهها ، وكأنها كانت تقول بعينيها المفتونتين « مهلا ، مهلا ... »

صاح سانين يقول :

ـ آه يا جيما ، هل كنت أستطيع أن آمل أن تحبيني (١) في يوم من الايام ؟

كان قلب الفتى يهتز كأنه وتر مشدود ، وهو يخاطبها لاول مرة بصيغة المفرد

قالت جيما في رقة وعذوبة :

ـ انا أيضا لم اكن اظن ذلك !

ـ هل كان في وسعي ، حين وصلت الى مدينة فرنكفورت التي كنت أظن انني سأقضي فيها بضع ساعات فحسب ، هل كان في وسعي أن اظن انني سأجد فيها سعادة حياتي كلها ؟

ـ حياتك كلها ؟ هل هذا صحيح ؟

ـ نعم حياتي كلها ! الى الابد ! الى الابد

قال سانين ذلك بمزيد من الحماسة .

كان مشط البستاني يحرك الحصباء على بعد خطوتين من المقعد الذي يجلس عليه الشابان .

فقالت جيما :

ـ هيا بنا .. نعد .. هل توافق ؟

الا لو أن جيما سألت سانين ، في هذه اللحظة ، « الق نفسك في البحر .. هل يوافق ؟ » لأسرع يرمي بنفسه في الهوة قبل ان تتم جملتها !

وخرج الاثنان من الحديقة ، واتجها نحو الدكان عن طريق الضاحية اجتنابا لشوارع المدينة .

(١) كان سانين يخاطب جيما حتى الان بصيغة الجمع ، وهو المألوف عند القوم قبل رفع الكلفة بين المتخاطبين ، وهـذه اول عبارة يخاطبها فيها بصيغة المفرد «المترجم» .

كان سانين يمشى الى جانب جيما تارة ، ووراءها تارة اخرى . وكان لايتحول عنها ببصره ، ويبتسم بغير انقطاع . وكانت جيما كأنها تسرع الخطا فى بعض الاحيان ، وكأنها تبطئها فى احيان أخرى ، وكان الاثنان يسيران فى مثل الحلم ، هو شاحب وهى متوردةالخدين من شدة الانفعال .

ان هذا الاتحاد الذى تم بين روحيهما منذ لحظات قد جاء قويا مفاجئا جديدا مقلقا ... وان حياتهما قد أصابها تبدل لم يكن فى الحسبان ... فهما لايكادان يدركان ماوقع لهما ... ان اعصارا يحملهما الان ، كالاعصار الذى اوشك ذات مساء ان يلقى بكل منهما فى حضن الآخر .

كان سانين يرى جيما اثناء سيره رؤية جديدة . انه يلاحظ فى خطواتها وفى حركاتها خصائص لم يلاحظها من قبل . واصبحت هذه الامور الصغيرة كلها ثمينة عنده ... انها فاتنة ساحرة .

وكانت جيما تحس بما تحدثه فى نفس سانين من أثر .

انهما كليهما يحبان اول مرة ، ومعجزات الحب كلها تتم فى نفسيهما .

ان الحب الاول ثورة ! ثورة تحدث انقلابا فى مجرى الحياة التى تسير على وتيرة واحدة ، تحدث هذا الانقلاب فى لحظة : فليصعد الشباب على المتراس ، ويغرس هنالك رايته الساطعة التى تخفق عاليا ، لا يحفل بما ينتظره — موتا كان أو حياة جديدة — فهو يحيا النهار الجديد الذى يطلع ، كائنا ماكان ، ويتحدى المستقبل .

صاح سانين وهو يشير باصبعه الى شخص ملفع يحاذى الحائط ويسير بسرعة محاولا ألا يراه أحد :

— عجب ! ... لكأنه ...

كان سانين ، فى وسط هذا البحر من السعادة ، يشعر بالحاجة الى أن يكلم جيما لا فى الحب — فهذا الحب أمر مبتوت فيه ، مقدس — بل فى شيء آخر .

قالت جيما مرحة :

ــ نعم انه بانتاليون . واغلب الظن انه يتبعنى ... فلقد ظل امس يلاحقنى طوال النهار ... لقد حزر ...

ــ حزر !

ردد سانين كلمة جيما هذه فى نشوة .

وأى شىء يمكن ان تقوله جيما دون أن يشمل به سانين ؟

وتوسل اليها أن تقص عليه كل ماحدث البارحة .

فبدأت جيما قصتها فى تعجل ، فكانت تتعثر ثم تقطع كلامها لتنظر الى سانين ولتتنهد . وتبادلا نظرات سريعة مضيئة .

ذكرت أنها بعد المناقشة التى قامت بينها وبين أمها منذ يومين ، أرادت السيدة روزيلى أن تنتزع منها جوابا حاسما ، ولكنها استطاعت أن تستمهلها الى الغد . ولم تكن هذه المهلة بالامر الذى يسهل الحصول عليه من السيدة روزيلى ، ولكن جيما ظفرت بها .

وانها لكذلك اذ بالسيد كلوبر يصل على غير ميعاد . كان اكثر ثقلا وجمودا منه فى أى وقت مضى ، وأخذ البائع الاول يصب كل ما فى نفسه من استياء بصدد العمل الصبيانى الذى قام به الروسى والذى يجرح كرامته جرحا عميقا .

وشرحت جيما تقول :

ــ يقصد بالعمل الصبيانى المبارزة التى قمت بها انت ... وقد طلب من أمى أن تغلق الباب فى وجهك بحجة أن « هذا الروسى قد لطخ شرفى (أخذت جيما تقلد نبرة كلوبر وحركاته) . فلقد كانت مهمة الدفاع عن خطيبتى تقع على عاتقى ، لو اننى رأيت أن ذلك مفيد أو ضرورى . ان فرنكفورت كلها ستعلم غدا ان أجنبيا قدتبارز مع أحد الضباط بسبب خطيبتى . فما عسى أن يكون معنى هذا ؟ ان هذا العمل الصبيانى الذى قام به الروسى يلطخ شرفى » ووافقته أمى على رأيه ! أما أنا فصرحت له بأن عليه الا يقلق ، فشرفه مصون ، وشخصه مصون ، وأن عليه الا يحفل بالاقاويل التى سيلفقها الناس عن خطيبته ، لاننى لست خطيبته بعد الان ، ولن اكون زوجته ! الحق كنت انوى أن اتحدث معك قبل أن اكاشفه بالقطيعة الحاسمة ... ولكنه كان أمامى ، ولم أستطع أن اكبح جماح نفسى ... فأخذت أمى تصرخ ذعرا وهولا . وخرجت انا من الغرفة لأعود بعد قليل احمل للسيد كلوبر خاتم الخطبة الذى كنت قد خلعته منذ يومين . انزعج السيد كلوبر أشد الانزعاج ، ولكنه لأثرته وغروره لم يعلق على ذلك كثيرا ، ثم انصرف .

وانك لتدرك أنني تألمت كثيرا لألم امي . فقد عز على أن أراها حزينة . حتى لقد قلت لنفسي : لعلني تسرعت قليلا . ولكن رسالتك كانت معي . ثم انني ، حتى بدون تلك الرسالة ، كنت أحبك .

ــ انني أحبك .

ــ نعم ، انك بدأت تحبني .

كانت جيمـا تقص هذا كله بدندنة سريعـة ، وهي تبتسم تلك الابتسامة نفسها ، حتى اذا مر قربهما أحد خفضت صـوتها أو صمتت .

وكان سانين يصغي الى حديثها مفتونا ، وقد أعجب بصوتها كما أعجب أمس بخطها .

واستأنفت جيما كلامها في تدفق :

ــ ان أمي مستاءة أشد الاستياء ، وهي لاتفهم كيف يمـكن ان يصبح السيد كلوبر عندي انسانا لايطاق ولا يحتمل ، لا ولا أنني قبلته قبل ذلك من غير حب اذعانا لمشيئتها ولجاجتها . وهي تشتبه فيك ... حتى لقد أصبحت مقتنعة بأنني أحبك . ويحزنها أكثر من أي شيء آخر أن ذلك لم يخطر لها ببال ، وأنها كانت أمس ترجوك أن تنصحني ... مهمة غريبة ، أليس كذلك ؟ وهي تدعي الان أنك امرؤ محتال ، وانك استغللت ثقتها بلو .. وتتنبأ لي بأنك ستغدر بي ...

صاح سانين :

ــ كيف ياجيما ؟ لم تقولي لها ؟

ــ لم اقل لها شيئا.. وكيف أبيح لنفسي ان أقول لها اى شيء قبل ان اتحدث معك ؟

فضرب سانين كفا بكف ، وقال :

ــ جيما ! أرجو الان أن تفضي اليها بكل شيء ... خذيني اولا اليها ... اريد ان أبرهن لأمك على أنني لست بالرجل المخادع ...

كان صدر سانين يعلو بتأثير هـــذه الدفقة القوية من العواطف الكريمة الحارة .

ونظرت اليه جيما نظرة فاحصة ، وقالت :

ــ صحيح ؟ تريد ان تأتي معي الى أمي فورا لتحدثها في الامر ؟ ... تريد أن تأتي الى أمي التي تصرح بأن هذا كله عبث ؟ : « لن يتحقق هذا أبدا ... أبدا ... » ذلك ماتقوله أمي .

كان هنالك كلمة لم تجرؤ جيمـا أن تنطق بها رغم انهـا تحرق

شفتيها حرقا . وما كان سانين بأن يتولى هذا النطق بها ، قال :

ــ أن أصبح زوجك ياجيما ، فتلك سعادة لاتقاس بها سعادة !

لم يبق هناك حدود لحبه ونبل قلبه وصدق عزمه .

فلما سمعت جيما كلامه ، توقفت عن السير ، ثم غذت الخطا مسرعة .

أكانت تريد بذلك أن تهرب من هذه السعادة التى بلغت من القوة والمباغتة أنها لاتكاد تستطيع احتمالها ؟

وترنحت ساقاها من تحتها فجاة ! ففي ناصية شارع صغير ، على مسافة بضع خطوات منهما ، ظهر السيد كلوبر مرتديا قبعة جديدة ، منتصبا كسهم ، مقصب الشعر ككلب مجعد الشعر .

فلما راى جيما ، وعرف سانين ، عطف قامته وهو يضحك ضحكا ساخرا ، وتقدم منهما .

فكان الشعور الاول الذى احسه سانين هو الاحتقار ، ولكنه حين راى وجه السيد كلوبر الذى يحاول أن يظهر الدهشة والازدراء والشفقة ، حين راى هذا الوجه المحمر المبتذل ، فار في نفسه الغضب وتقدم خطوة الى الامام .

فامسكت جيما بيده ، وشدت عليها ، ونظرت الى خطيبها القديم نظرة تتجلى فيها الكرامة والصرامة .

فطرف السيد كلوبر بعينيه ، وتضاءل ، ومر سريعا الى جانب الشابين ، وهو يدمدم بين أسنانه ببضع كلمات « هكذا تنتهى الاغنية ! » ، وابتعد بقامته المتراقصة . سأل سانين :

ــ ماذا قال هذا الوقح ؟

وأراد أن يهرع وراء كلوبر ، ولكن جيما أمسكت به ، وابقت ذراعها في ذراعه ، وقادته .

وما هى الا لحظات حتى ظهر لهما الدكان . فتوقفت جيما مرة أخرى وقالت لسانين :

ــ ديمترى ، ياسيد ديمترى ، اننا لم ندخل بعد ولا تحدثنا في الامر الى أمي ... ولا يزال لديك متسع من الوقت للتفكير .. انك لا تزال حرا يا ديمترى .

وما كان جواب سانين على هذا الكلام الا ان شد ذراع جيما الى صدره بقوة ، وقادها الى البيت .

قالت جيما وهي تصل الى حجرة المدخل :

ــ ماما ... لقد جئتك بخطيبى الحقيقى .

لو قالت لامها اننى اجيئك بالطاعون أو احمل اليك الموت ، لما استطاعت السيدة لينور أن تظهر من الالم والذعر واليأس أكثر مما اظهرت .

فقد هرعت الى ركن من الغرفة تعتصم به ، وادارت وجهها الى الجدار ، وأجهشت تبكى فى عويل وانين . ان فلاحة روسية لاتنتحب غير هذا الانتحاب على قبر زوجها او ابنها .

وقد بلغت جيما من شدة التأثر بهذا الاستقبال ، أنها لم تجرؤ على الاقتراب من امها ، بل ظلت فى وسط الغرفة جامدة كتمثال . ولم يعرف سانين كيف يضبط اعصابه . حتى لقد أوشك أن يقلد السيدة لينور ...

ودام هذا الحزن الذى لم يستطع شيء ان يذهب به ، دام ساعة كاملة .. ساعة كاملة .

وقد وجد بانتاليون أن من الخير أن يقفل باب الدكان بالمفتاح حتى لايستطيع احد أن يدخل . ومن حسن الحظ ان الوقت كان أبكر من أن يتوافد الزبائن . كان الرجل العجوز مضطربا اشد الاضطراب ، وكان لايحبذ هذا التعجل فى سلوك جيما وسانين . ولكنه لم يجرؤ أن يلومهما ، وظل مستعدا لان يقدم لهما العون والدعم حين تقتضي الضرورة ذلك : كان لا يحب السيد كلوبر .

اما ايميليو فقد اعتز بأنه كان الوسيط بين صديقه وأخته ، وكان يغبط نفسه على أن الامور جرت هذا المجرى . وكان لايستطيع أن يفهم حزن امه ، وقرر أن جميع النساء يعوزهن شيء من عقل ، حتى أرجحهن عقلا .

وكان سانين هو الذى يتألم أكثر منهم جميعا . كانت السيدة روزيلى تصرخ وتهتاج كلما هم أن يقترب منها . وقد حاول عدة مرات أن يصيح قائلا لها من بعيد « لقد جئت اليك لاخطب الانسة ابنتك » . ولكن محاولاته ذهبت سدى .

كانت السيدة لينور تحقد خاصة على عمادتها ، ولا تغفر لنفسها هذه العمادة .

وكانت تردد قولها : « لو كان جيوفاني باتيستا حيا ، لما وقع شيء من هذا الذي يقع ! »
قال سانين لنفسه : « كيف ننتهي من هذا الامر يارب ! لقد بلغ اخيرا حد الحماقة ! »
وكان يخاف أن ينظر الى جيما ، وكانت جيما لاتجرؤ ان ترفع نظرها اليه ، بل تكتفي باسعاف أمها التي رفضت هذا الاسعاف في أول الأمر .
ثم هدأت العاصفة شيئا فشيئا . فقد انقطعت السيدة لينور عن البكاء ، وسمحت لابنتها ان تخرجها من الركن الذي لطت به ، وأن تجلسها على كرسي كبير قرب النافذة ، وأن تأتي لها بكاس من الماء المحلى بزهر البرتقال . ولكنها ظلت تمنع سانين من الاقتراب منها : « اما أنت فلا ! » . غير ان احتملت بقاءه في الفرفة بعد أن كانت تطرده منها ، وتركت له أن يتكلم دون أن تقاطعه .
وسرعان ما أستغل سانين هذا ، حتى لقد اظهر فصاحة نادرة المثال . ولعله ماكان ليستطيع أن يصرح عن عواطفه وعن نواياه بمثل هذه القوة في الحجة والاقناع لو أنه كان يتحدث أمام جيما وحدها . لقد كانت عواطفه أصدق العواطف ، وكانت نواياه أطهر النوايا ، كعواطف المافيقا ونواياه في « حلاق أشبيلية » .
ولم يحاول أن يخفي عن السيدة لينور ، ولا عن نفسه ، ما في وضعه من أمور ظاهرة تزهد به ، فهو رجل غريب لم تعرفه الاسرة الا منذ بضعة أيام ، ولا علمت شيئا واضحا لا عن مركزه ، ولا عن وسائل عيشه . ولكنه أضاف الى ذلك انه مستعد لتقديم براهينه : فهو من أسرة محترمة ، وله بعض ثروة . وفي وسعه أن يستشهد على ذلك عددا كبيرا من أهل بلده . وقال انه يأمل أن يسعد جيما ، وأن يلطف ما ستشعر به من الم لفراق اسرتها .
وكادت كلمة الفراق هذه أن تفسد الامر . فقد اضطربت السيدة لينور في مقعدها .
فأسرع سانين يضيف الى كلامه قوله : هذا فراق الى حين ، وقد يمكن اجتنابه على كل حال .
وسرعان ماجنى سانين ثمرات بلاغته . فقد رضيت السيدة لينور أن تنظر اليه . وزال ما كان في وجهها من غضب واشمئزاز ، ولم يبق فيه الا تعبير عن الالم واللوم .
واستمرت تتفجع ، ولكن تفجعها أصبح أكثر اعتدالا ونعومة ،

وأصبحت تقطعه بأسئلة توجهها تارة الى سانين وتارة الى جيما . وسمحت للشاب الروسي أن يتناول يدها ، ثم لم تسحبها فورا . وعادت تبكي ، الا أن الدموع غير الدموع . وطافت فى وجهها أخيرا ابتسامة حزينة ، وعبرت مرة أخرى عن أسفها على أن جيوفاني باتيستا ليس حيا ليرى أولاده .

وما هى الا لحظة حتى كان المذنبان ، سانين وجيما ، يركعان بين قدميها ، فوضعت يديها على رأسيهما . ولم يلبث الشابان ان قاما يقبلان السيدة لينور . وهرع ايمليو الى الغرفة مشرق الوجه من السعادة ، وراح بدوره يقبل الجمع المتشابك .

والقى بانتاليون نظرة على الغرفة ، فابتسم ، ولكنه مالبث ان اكفهر واتجه الى الدكان يفتح باب الدخول .

ان الانتقال من الذعر الى الحزن ومن الحزن الى اذعان رقيق ، قد تم فى نفس السيدة لينور بسرعة ، ثم تحول هذا الاذعان الى رضا فى السر ، كانت تخفيه احتراما للتقاليد .

كان سانين قد ملك قلب السيدة لينور منذ اليوم الاول . فلما تصورت أنه سيكون صهرها لم تزعجها هذه الفكرة ، ولكنها رات أن من الضرورى أن تظهر بمظهر من أسيء اليه أو من أحس بالقلق ثم ان جميع الاحداث التى تعاقبت منذ بضعة أيام أحداث سريعة خارقة .

وان السـيدة لينور امراة عملية ، لذلك رات من واجبها أن تستجوب سانين استجوابا دقيقا . وأخذ الشاب الذى كان فى هذا الصباح نفسه ، ساعة مضى الى لقاء جيما ، لايخطر بباله أن يتزوج — الحق انه فى تلك اللحظة لم يكن يفكر الا فى هواه — أخذ يمثل دور الخطيب فى جد ، فكان يجيب راضيا ، وبكثير من التفاصيل ، عن جميع الاسئلة التى تطرحها عليه السيدة روزيلى .

فلما أيقنت السيدة لينور أن سانين ينتمى الى طبقة النبلاء — وقد أدهشها قليلا انه ليس أميرا — اصطنعت هيئة الجد ، وقالت له « بدون لف ولا دوران » انها ستكون صريحة معه بلا حرج ، لان ذلك هو الواجب المقدس الذى يقع على عاتق أم .

فقال لها سانين ان هذا بعينه هو ما يريده ، ورجاها الا تتحرج فى مكاشفته بما فى نفسها .

عندئذ قالت السيدة لينور : ان السيد كلوبر — وحين نطقت بهذا الاسم تنهدت قليلا وعضت شفتيها وتوقفت عن الكلام لحظة — ان السيد كلوبر ، خطيب جيما السابق ، له دخل يبلغ الان ثمانية الاف جولدن ، وان هذا المبلغ يزيد كل عام . وأضافت السيدة لينور تسأل سانين : « وأنت ما دخلك ؟ » .

فقال سانين ببطء :

— ثمانية آلاف جولدن ، هذا يساوى خمسة عشر الف روبل ... ان دخلى أقل من ذلك ... فأنا أملك أرضا فى ولاية تولا ، فان

أحسنت استثمار هذه الارض ، درت على خمسة آلاف او ستة آلاف روبل . وسألتمس وظيفة فى الدولة ... وسيكون مرتبى فيها الفى روبل .

— وظيفة فى الدولة ؟ بروسيا ؟ اذن سانفصل عن جيما ؟

هكذا صاحت السيدة لينور ، فبادر سانين يطمئنها بقوله :

— وظيفة فى السلك الدبلوماسى ! ان لى علاقات كثيرة ... ولا شىء يمنعنى اذن من ان أعيش فى الخارج .. اسمعى ! ان افضل حل هو ان ابيع الارض التى املكها ، وان استثمر ثمنها فى مشروع من المشاريع ... ومن الممكن ان يكون هذا المشروع تحسين متجركم وتوسيع عمله :

كان سانين يدرك كل الادراك انه يقول اشياء بعيدة عن الحكمة ، ولكنه كان يحس بالجراة على الا يتراجع امام أية تضحية ! كان يكفيه أن يلقى نظرة على جيما التى كانت ، منذ اخذت أمها « تتحدث فى شئون عملية » ، لاتنقطع عن الذهاب والمجىء فى الغرفة ، وعن القيام والقعود بلا سبب ، كان يكفيه أن ينظر اليها حتى يحس أنه مستعد لان يقبل فورا كل ما يطلب منه ، شريطة ألا يتعكر صفو الفتاة .

قالت السيدة لينور بعد لحظة من تردد :

— كان السيد كلوبر ينوى أن ينقدنى مبلغا من المال لتحسين متجرنا .

فصاحت جيما :

— أمى ، أمى ، ارجوك !

— يجب ترتيب هذه الامور منذ الان يا ابنتى !

ثم اخذت السيدة روزيللى تسال سانين عن قوانين الزواج فى روسيا ، وهل يحظر هناك على روسى أن يتزوج كاثوليكية كما فى بروسيا ؟

وكانت المانيا كلها فى ذلك العصر ، عام ١٨٤٠ ، تتحدث عن الخصومة التى قامت بين الحكومة البروسية وبين اسقف كولونيا بشأن الزواج المختلط .

ومع ذلك ، حين علمت السيدة لينور أن ابنتها ستصبح من طبقة النبلاء اذ تتزوج من نبيل ، لم تخف رضاها عن هذا الزواج .

وهتفت فجاة تقول :

— ولكن هل يجب أن تذهب الى روسيا قبل أن تتزوج لتحصل

على ترخيص بزواجك ؟
فأكد لها سانين انه ليس فى حاجة الى ترخيص بالزواج ، ولكنه قد يضطر الى العودة الى روسيا مدة قصيرة جدا من الوقت ، وذلك ليبيع أرضه ويحصل على المال الذى هو فى حاجة اليه .
وانقبض صدر سانين من مجرد الحديث عن السفر . وحين نظرت اليه جيما فهمت أنه يتألم ، فاحمر خداها وظلت مطرقة تفكر .
قالت السيدة لينور :
ــ ستأتينى من روسيا بفراء من الاستراكان ... فقد سمعت أن فراء الاستراكان فى روسيا ممتاز ، وانه ليس باهظ الثمن أبدا .
ــ بكل سرور ، وسآتى بفراء لجيما أيضا .
قال ايمليو ، وهو يمد رأسه من باب الغرفة الثانية :
ــ أما أنا فأريد قبعة من جلد روسيا ، مطرزة بالفضة .
ــ حاضر ... ولبانتاليون حذاء أن ...
ــ لاداعى ، لاداعى !
قالت السيدة لينور ذلك وأضافت :
ــ لنعد الى الجد ... قلت انك ستبيع الارض فهل ستبيع معها الفلاحين ؟
فأحس سانين لهذا السؤال بوخز فى جسمه . فقد تذكر أنه حين تناقش مع السيدة روزيلى وابنتها فى موضوع القنـــــاعة ، أظهر اعتراضه على هذا النظام واستنكاره له ، وقال انه لايمكن أن يبيع عبيده بأى ثمن لانه يرى فى ذلك تجارة منافية للاخلاق .
قال فى شيء من الاضطراب :
ــ سأحاول ان أبيع أرضى لشخص اعرف فيه الرحمة والانسانية ... أو لعل الفلاحين عندى سيؤثرون أن يشتروا حريتهم ...
قالت السيدة لينور :
ــ ذلك أفضل حل ... لان بيع كائنات انسانية أمر ...
ــ بربرى ... وحشى ...
قال ذلك بانتاليون وهو يمد رأسه من وراء ايمليو ، ثم هز ذؤابته واختفى .
قال سانين بينه وبين نفسه وهو يختلس النظر الى جيما : حقا ان ذلك ليس بجميل !
وكان يبدو على الفتاة أنها لم تسمع كلماته الاخيرة .
قال سانين لنفسه : ســــتنحل الامور على كل حال . ودامت

المناقشة العملية بينه وبين السيدة لينور حتى الفداء .
وأصبحت السيدة لينور فى النهاية تعامل سانين فى مودة كبيرة ، وتخاطبه باسم ديمترى ، وتهدده بأصبعها فى لطف ، وتحلف لتعاقبه على مكره .
وسألته أسئلة دقيقة عن قرابته ، قائلة : « هذا أمر هام جدا » ، وسألته أن يصف لها الاحتفال بالعرس فى طقوس الكنيسة الروسية ، وثملت من تصور ابنتها جيما فى ثياب العرس البيضاء وعلى رأسها تاج من ذهب .
واضافت تقول فى زهو الام :
ــ بنتى جميلة ، كملكة ... بل هى اجمل من ملكة ...
فهتف سانين :
ــ ومن هنا جاء أسمها (تعنى كلمة جيما الايطالية : جوهرة) .
وركضت الفتاة نحو أمها واخذت تقبلها .
انها تحس بالثقل ينزاح عن صدرها .
وشعر سانين بسعادة لاتوصف ، وامتلأ قلبه بفرح كفرح الاطفال حين تصور أن الاحلام التى هدهد بها نفسه منذ قليل فى هذا البيت قد أخذت تتحقق ، واستولت عليه حاجة شديدة الى العمل والنشاط ، حتى لقد أراد أن يخدم فى متجر الحلوى وراء البسطة كما فعل ذلك منذ أيام .
قال لنفسه :
ــ هذا الان من حقى ، فانا هنا فى بيتى !
وجلس وراء البسطة ، وعمل عمل البائع ، فوزن لابنتين كيلو من السكاكر بدلا من نصف كيلو ، وحسب الكيلو بنصف سعره أيضا .
حتى اذا فرشت مائدة الفداء جلس الى جانب جيما ، فهو الان خطيبها رسميا .
وظلت السيدة لينور تتحدث فى « الشئون العملية » ، بينما اخذ ايمليو يضرع الى سانين ان يصطحبه فى سفره الى روسيا .
واستقر الراى على أن يسافر سانين بعد اسبوعين .
وظل بانتاليون كئيبا مكفهر الوجه وحده . حتى لقد رأت السيدة لينور أن تقول له : « ألم تكن أنت شاهده ؟ » ، فنظر اليها بانتاليون نظرة غريبة .
وظلت جيما صامتة طوال الوقت تقريبا . ان وجهها لم يكن فى يوم من الايام أكثر جمالا ولا اكثر اشراقا منه الان .

وبعد الغداء نادت جيما سانين ، وخرجت به الى الحديقة ، فلما وصلت الى الحديقة التى كانت جالسة فيها منذ يومين تخرج ثمار الكرز من الشلة وتضعها فى الطبق ، قالت له :

ـ لا تغضب يا ديمتري.. اريد أن اذكرك مرة أخرى بأن عليك الا تظن أنك ارتبطت ارتباطا لا فكاك منه ..

فلم يدع لها سانين أن تتم جملتها . واردفت جيما تقول وهى تخرج من صدرها صليبا من العقيق علق الى جيدها بخيط من حرير :

ـ أما عن الشيء الاخر ... أعنى اختلاف الدين الذى تحدثت عنه أمى ، فان دينى سيكون دينك ، مادمت قد وهبت نفسى لك .

قالت ذلك وهى تشد خيط الحرير شدا قويا ، فلما انقطع الخيط مدت الصليب الى سانين .

كانت عينا سانين لا تزالان مبللتين بالدموع حين عاد الى الغرفة مع جيما .

وفى المساء كانت الاسرة كلها قد استأنفت مجرى حياتها المعتاد ، حتى انهم لعبوا بالورق .

استيقظ سانين فى الغداة فى ساعة مبكرة من الصباح . وكان قد بلغ ذروة السعادة التى يمكن ان يصل اليها قلب انسان . وليس هذا ما حرمه من النوم ، وانما كانت تشغل باله مشكلة مالية : ما الذى يجب عليه ان يفعله حتى يبيع أرضه بأقصى سرعة ممكنة ، وبأحسن سعر ممكن . واختلطت فى ذهنه مشروعات كثيرة ، ولكنه لم يستقر على رأى واضح . وخرج من الفندق ليتنسم الهواء الطرى وليفكر فى أمره . كان يريد أن يذهب الى جيما وقد اختمرت فى ذهنه الخطة .

وفجأة خطف بصره منظر شخص مقبل : رجل سمين ولكنه حسن الهندام ، يهتز متارجحا على قدمين كبيرتين .

فتساءل سانين ترى أين سبق له أن رأى هذه النقرة المغطاة بشعر أشقر ضارب الى بياض ، وهذا الرأس الذى يشبه أن يكون مغروسا فى الكتفين ، وهذا الظهر الربل الطافح من كثرة ما فيه من شحم ، وهاتين الذراعين المنتفختين المتدليتين على طول الجذ .. ترى الا يمكن أن يكون هو بولوزوف ، رفيقه فى المدرسة الداخلية ، الذى لم يره منذ خمس سنوات ؟

فلما وصل اليه الرجل ثم تجاوزه ، هرع سانين يركض وراءه حتى تقدمه ، ثم التفت . . . فرأى وجها عريضا مصفرا ، وعينين صغيرتين كأنهما عينا خنزير ، لهما أهداب بيضاء ، وحاجبين أبيضين ، وانفا قصيرا أفطس ، وشفتين ضخمتين كأنما التصقت احداهما بالاخرى ، وذقنا مدور مرداد . فلم يشك سانين حين رأى ما فى هذا الرأس من تعبير عن الحدة والشك وسوء الظن انه حقا هيبوليت بولوزوف .

فقال فى نفسه : « لا شك ان نجمى هو الذى أرسله الى ، هذه المرة أيضا » .

ـ بولوزوف ، هيبوليت سيدورتش ، أهذا انت ؟

هكذا نادى سانين . فتوقف الرجل ، ورفع عينيه الصغيرتين ، وتردد لحظة ، ثم فتح شفتيه وقال بصوت حاد ابح قليلا :

ـ ديمترى سانين ؟

ـ بعينه !

قال سانين ذلك وهز احدى يدى بولوزوف المدسوستين فى قفازين رماديين ، والمتدليتين فى سكون على ردفيه .

ـ انت هنا منذ مدة طويلة ؟ من أين وصلت ؟ فى أى فندق نزلت ؟

ـ وصلت أمس من فسبادن . . . لاشترى بعض الاشياء لزوجتى . . . وسأعود اليوم الى فسبادن .

ـ ها . . صحيح . . لقد سمعت انك تزوجت ، وان زوجتك على جانب عظيم من الجمال !

انزلقت عينا بولوزوف من اليمين الى الشمال حين سمع هذا الكلام ، وقال :

ـ نعم ، يقال ذلك .

فأخذ سانين يضحك .

ـ أرى انك لم تتبدل . . . فما زلت على مثل ما كنت عليه أيام المدرسة من هدوء !

ـ وعلام أتغير ؟

ـ يقال أيضا (وقد الح سانين على كلمة « يقال » هذه) ، ان زوجتك غنية جدا ؟

ـ نعم ، يقال ذلك أيضا .

ـ وانت غير متأكد من هذا ؟

ـ انا ، يا عزيزى ، لا أتدخل فى شئون زوجتى !

ـ ولا فى اى شأن من شئونها ؟

ـ ولا فى اى شأن من شئونها . . . هى تسير فى طريقها ، وانا أسير فى طريقى !

قال بولوزوف ذلك وقد انزلقت عيناه مرة أخرى .

ـ الى أين انت الآن ذاهب ؟

لست ذاهبا الى اى مكان . ابقى فى الشارع أتحدث معك ، حتى اذا حان وقت الغداء ، ذهبت الى الفندق وتغديت .

ـ هل تحب ان ارافقك ؟

ـ فى الغداء ؟

ـ نعم .

ـ بسرور . ان يتغدى المرء مع شخص آخر فذلك دائما أمتع . .

ولـكنك لن تثرثر كثيرا ، أليس كذلك ؟

ــ لا . . .

ــ طيب . . .

واستأنف بولوزوف سيره ، ومشى سانين الى جانبه .

والتصقت شفتا بوزلوف احداهما بالاخرى من جـديد . وكان يشخر ويهتز صامتا .

قال سانين بينه وبين نفسـه : « كيف استطاع هذا الرجل الغبى ، هذا الحطب ، ان يعثر على زوجة فى مثل هذا الجمال وهذا الثراء ! انه لم يكن بالرجل الفنى ، ولا هو ينتمي الى الطبقة النبيلة العليا ، وليس على شيء من ذكاء . . . لقد كان يعد فى المدرسـة ولدا ابله ، خاملا ، شرها لا أكثر . . . حتى لقد كان يلقب هناك بلقب « الرائل » . . .

وتابع سانين يفكر بينه وبين نفسـه :

« ولكن ، ما دامت زوجته غنية ، أفلا يمكن ان تشترى أرضى ؟ لقد قال بولوزوف أنه لا يتدخل فى شئون زوجته ، ولكننى لا اصدق شيئا من هذا . سوف أطلب لارضى ثمنا يغريها ! فلأحاول . . ربما كان نجمى هو الذى أرسله الى ! نعم . . قررت هذا . . سوف أكلمه فى الامر » .

سار بولوزوف بصاحبه الى فندق من اكبر فنادق فرنكفورت ، يحتل هو فيه اجمل جناح من اجنحته . ورأى سانين فوق الاثاث علبا وصناديق وطرودا . . .

ــ هذه مشترواتى لماريا نيقولائينا . . .

قال بولوزوف ذلك ، وتهالك على مقعد من المقاعد . واضـاف وهو يحل رباط عنقه :

ــ ما أشد الحر فى هذا اليوم !

ثم قرع الجرس للخادم ، وامره بقائمة منوعة كبيرة من فاخر الطعام ، وقال له :

ــ ويجب ان تكون العربة مهياة فى الساعة الواحدة ، فى السـاعة الواحدة ، هل فهمت ؟

فانحنى الخادم نصفين ، مبالغة منه فى التحية والتكريم ، ثم انصرف .

وفك بولوزوف أزرار صداره . كان حسب المرء أن يرى كيف يرفع حاجبيه ، وكيف يزفر فى عناء ، وكيف يعتلى انفه ، حتى

يدرك ان الكلام يقتضيه جهدا شاقا . لقد كان يتساءل ، في غير قليل من القلق ، هل سيحمله رفيقه على تحريك لسانه ، أو انه سيعفيه من هذا ويتولي الكلام وحده .

وادرك سانين ذلك ، فلم يزعج رفيقه القديم بالاسئلة . وانما اكتفى منها بما كان لا بد له من معرفته .

فعلم منه انه قد دخل الجيش ، وظل فيه سنتين — سلاح الفرسان — « لا شك انه كان جميلا في القميص القصير ! » .

واسر بولوزوف الى صديقه أيضا انه تزوج منذ أربع سنوات ، وانه يطوف في الخارج مع زوجته منذ سنتين ، وان زوجته تستشفى الآن بمياه فسبادن ، وانها ستذهب من هناك الى باريس .

وكان سانين متكتما ، فلم يحدث صديقه عن ماضيه ولا عن مشاريعه ، بل انتقل راسا الى الموضوع الذي يهمه خاصة ، وهو رغبته في بيع أرضه .

فكان بولوزوف يصغي اليه دون أن يقول شيئا ، وينظر الى الباب الذي سيدخل منه الطعام . ووصل الطعام أخيرا ، يتقدمه رئيس السعاة ، ويحمله خادمان على أطباق كثيرة فوقها أغطية ثقيلة من الفضة .

قال بولوزوف وهو يجلس الى المائدة ، ويدس طرف المنشفة في ياقة قميصه :

— ان ارضك تقع في ولاية تولا ، أليس كذلك ؟

— نعم في ولاية تولا !

— بمنطقة افرسوف . . . أعرف !

— أأنت تعرف أرضي بالكسيئيفكا ؟

سأله سانين هذا السؤال وهو يجلس الى المائدة .

— اظن انني أعرفها !

وحمل بولوزوف الى فمه قطعة كبيرة من عجة الكمأة .

— ان لزوجتي أراضي قريبة منها . . .

قال ذلك ثم نادي الخادم وطلب اليه أن يفتح زجاجة الخمر . وأردف :

— وهذه الاراضي خصبة . . . ولكن فلاحيك قد قطعوا أشجار غابتك ! . . وبالمناسبة ، لماذا تريد أن تبيع أملاكك ؟

— لانني في حاجة الى مال . . نعم . . وسأبيع بثمن غير باهظ . . شراؤك أرضي صفقة رابحة لك . .

وافرغ بولوزوف فى جوفه كاسا من الخمر دفعة واحدة ، ثم جفف فمه بمنشفة ، وراح يمضغ الطعام ببطء ويلوكه بطقطقة مسموعة .

ـ لا . . انا لا أشترى املاكا . . فليس لى مال أشترى به ناولنى الزبدة من فضلك . . ولكن زوجتى قد تشترى ارضك . . حدثها فى الموضوع . . وما اظن انها تخاف ان تشترى اذا انت طلبت ثمنا غير باهظ .. يا لهؤلاء الالمان من حمير ! انهم لا يجيدون طهو السمك ، مع انه من آيسر الامور وأبسطها .. ثم هم يتحدثون عن وحدة « الوطن » . . .

قال ذلك ثم نادى الخادم قائلا :

ـ ارفع هذا الطعام الذى لا يؤكل .

ـ هل صحيح أن زوجتك تدير املاكها وحدها ؟

ـ نعم وحدها . . شرائح اللحم المشوى لذيذة . . انصحك بأن تأكل منها . . قلت لك اننى لا اتدخل فى شئون زوجتى . . وهذا صحيح . . انا لا اتدخل فى شئونها . .

واستمر بولوزوف يطقطق بشفتيه وهو يمضغ الطعام .

ـ ولكن ماذا يجب ان اعمل لاحدثها فى الامر بنفسى ؟

ـ المسألة بسيطة . . اذهب الى زيارتها بفسبادن . . وفسبادن ليست بعيدة عن فرنكفورت . .

ونادى الخادم :

ـ هات لى خردلا انجليزيا ! ليس عندكم خردل انجليزى ؟ يا لكم من بهائم !

ثم عاد يكلم سانين :

ـ ولكن يجب الا تضيع الوقت . نحن مسافران بعد غد . . هل لك بقليل من الخمر ؟ خمرهم لا بأس به !

وتلون وجه بولوزوف . انه لا ينتعش الا حين يأكل ويشرب .

قال سانين :

ـ الحق اننى لا أعرف ماذا افعل !

ـ ولكن هل انت مستعجل بيع أرضك ؟

ـ جدا .

ـ وفى حاجة الى مال كثير !

ـ نعم . . اسمع . . افضل ان اذكر لك كل شىء . . اننى بصدد زواج !

فلما سمع بولوزوف هذا الكلام اعاد الى المائدة القدح الذى

حمله الى شفتيه :

ـ بصدد زواج ؟ هكذا . . فجاة ؟

كذلك صاح بصوت بح من الدهشة ، وهو يضم يديه الشخينتين الى بطنه .

ـ نعم .

ـ خطيبتك هى الآن فى روسيا طبعا .

ـ لا .

ـ أين هى ؟

ـ هنا فى فرنكفورت !

ـ من هى ؟

ـ ايطالية .. مولودة بفرنكفورت

ـ غنية ؟

ـ لا .

ـ هو اذن غرام شديد !

ـ انت مضحك ! نعم . . احبها كثيرا . .

ـ ومن أجل هذا تريد المال ؟

ـ نعم ، نعم ، نعم ! . .

افرغ بولوزوف كأسه ، وتمضمض ، وغسل يديه وجففهما بالمنشفة ، ثم أخرج من جيبه سيجارا فاشعله .

وكان سانين ينظر اليه دون أن يقول شيئا .

قال بولوزوف أخيرا ، وهو يدفع راسه الى الوراء ، وينفخ الدخان حلزونات دقيقة :

ـ لا ارى الا وسيلة واحدة ، هى ان تذهب الى زوجتى ، فاذا شاءت أخرجتك من المأزق الذى أنت فيه .

ـ ولكن كيف أستطيع أن أرى زوجتك ، وأنت تقول انكما مسافران بعد غد ؟

اغمض بولوزوف عينيه . ثم قال اخيرا ، وهو يدير السيجار بين شفتيه ويزفر :

ـ اسمع .. اذهب الآن الى فندقك ، فهيىء امتعة السفر بسرعة ، ثم عد الى هنا . . اننى ساسافر فى الساعة الواحدة . . وعربتى كبيرة . . فيمكن ان تأتى معى . هذا خير ما يمكن فعله . . والآن ، قيلولة قصيرة . . اننى متى اكلت شعرت برغبة فى أن أنام قليلا . . مزاجى يطلب ذلك وأنا أخضع له . . لا تحل اذن بينى وبين النوم !

فكر سانين ثم فكر . . ثم رفع راسه فجاة . . لقد عزم أمره . .

ــ طيب . . شكرا . . سأعود اليك فى الساعة الثانية عشرة والنصف . . وسنسافر معا الى فسبادن . . آمل الا تستاء زوجتك من قدومي .

حين قال سانين ذلك ، كان بولوزوف قد غط فى نوم عميق وراح يشخر . . انه منذ قال « لا تحل بينى وبين النوم » مد ساقيه ونام كطفل .

القى سانين نظرة اخيرة على هذا الوجه الكبير ، على هذا الراس الذى ليس له رقبة ، على هذه الذقن العالية المدورة التى تشبه تفاحة ، ثم هرع الى دكان السيدة روزيلى لينبىء جيما بما عزم عليه..

وجد الفتاة مع أمها فى الدكان .

كانت السيدة لينور قد انحنت على الارض نصفين ، وراحت تقيس المسافة بين النافذتين .

فلما رات سانين نهضت واستقبلته فرحة ، ولكن على شيء من الخجل ، وقالت :

ـ أصبحت منذ حديثنا امس لا افكر الا فى الاصلاحات التي يمكن ان ندخلها على المخزن . . هنا اريد رفوفا من مرايا حقيقية . . فهذه هى « الموضة » الآن . . وهنا . .

قال سانين مقاطعا :

ـ طيب ، طيب ، سنفكر فى هذا كله بعد . اما الآن فتعالى معى . اريد أن افضي اليك بنبأ .

وأمسك بذراع السيدة لينور ، فمضى بها الى الغرفة المجاورة .وقد اضطربت السيدة لينور ، فسقط من يدها المتر الذى كانت تحمله وقلقت جيما قليلا ، فرفعت بصرها الى سانين ، فاطمأنت . كان وجه الفتى يدل على انشغال البال ، ولكنه كان يعبر فى الوقت نفسه عن شجاعة لا تتزلزل ، وعن عزم شديد .

وطلب الى المراتين أن تجلسا ، وظل واقفا امامهما يشير بيدين وينفش شعره وهو يقص عليهما التقاءه المفاجيء ببولوزوف ، وسفره المقترح الى فسبادن ، وأمله فى أن يبيع أرضه .

وصرخ :

ـ هل تدركين السعادة التى أنا فيها ؟ اذا نجحت المساعى التى أقوم بها ، فلن اضطر الى السفر الى روسيا ! وسيكون فى وسعنا ان نتزوج قبل الموعد الذى كنت أقدر أن نتزوج فيه !

قالت جيما :

ـ متى تسافر ؟

ـ بعد ساعة . سيصطحبني صديقى فى عربته !

ـ ستكتب الينا ، أليس كذلك ؟

ـ ساعة وصولى . متى تحدثت مع هذه السيدة فى الموضوع ،

بعثت اطلعك على ما وصلت اليه من الامر . .
وسألته السيدة لينور :
ـ تقول ان هذه السيدة غنية جدا ، أليس كذلك ؟
ـ غنية غنى فاحشا . . كان أبوها يملك عدة ملايين ، وقد أوصى لها بكل ثروته وهو يموت .
ـ لها وحدها ؟ هذا من حظك ! ولكن حاول الا تبيع أرضك بثمن بخس ! . . كن حكيما ولا تفرط ! كن هادئا ولا تتحمس ! أنا أفهم رغبتك في الزواج بأقصى سرعة ممكنة ! ولكن لا تنس ان ما سيبقى لكما ولاولادكما من المال سيكون على قدر المبلغ الذى تستطيع أن تنتزعه ثمنا لارضك .
وحولت جيما رأسها . واستأنف سانين كلامه وحركاته واشاراته :
ـ اعتمدى على حكمتى يا سيدة لينور . . لن أسمح بالمساومة . سأحدد لهذه السيدة سعرا معقولا ، فان وافقت عليه كان بها ، والا فلا . .
قالت جيما :
ـ هل سبق أن رأيت هذه السيدة ؟
ـ أبدا . .
ـ ومتى تعود ؟
ـ اذا لم تنجح الصفقة عدت غدا . اما اذا رأيت ان من الممكن أن أخرج بشىء ، بقيت يوما آخر أو يومين . . وعلى كل حال لن تطول اقامتى هناك دقيقة واحدة فوق الحاجة .. اننى أترك روحى هنا ! ولكن يجب أن أذهب الى غرفتى قبل السفر . . يا سيدة لينور ناولينى يدك أتيمن بها . . هذه عادة في روسيا .
ـ اليمنى أم اليسرى ؟
ـ بل اليسرى ، لانها الى القلب أقرب . سأعود غدا « منتصرا أو منكسرا » . . ولكننى أحس اننى سأعود منتصرا . الى اللقاء يا عزيزتى ! الى اللقاء يا صديقتى !
قال ذلك ، وقبل السيدة لينور ، ورجا جيما أن تسمح له بالدخول الى غرفتها لحظة ، ليسر اليها بأمر هام .
كان يريد أن يخلو الى جيما .
وقد أدركت السيدة لينور ذلك ، فلم تسأل عن ذلك الأمر الهام ما عسى أن يكون !
ودخل سانين لاول مرة غرفة الفتاة .

فما ان اجتاز هذه العتبة المقدسة حتى غلي في نفسه كل ما في الحب من فتنة وسحر وحرارة ونشوة . . وكل ما فيه من خوف عذب أيضا . . .

والقي على ما حوله نظرة رقيقة ، ثم ركع أمام الفتاة ، وشد وجهه الى ثوبها .

قالت جيما :

ـ هل أنت لى ؟ هل تعود قريبا ؟

فقال سانين بصوت مختنق :

ـ أنا لك . . سأعود قريبا !

ـ سانتظرك . . .

وبعد بضع دقائق كان سانين فى الشارع يعدو نحو الفندق . ولم يلاحظ ان بانتاليون قد خرج من الدكان وراءه ، أشعث الرأس ، ولوح لهبيده المرفوعة كأنه يهدده ،وهو يقول كلاما لم يسمعه سانين

وفى الساعة الواحدة الا ربعا ، على وجه الدقة ، دخل سانين على بولوزوف . أمام الفندق كانت تنتظر عربة انيقة تجرها أربعة أحصنة

فلما راى بولوزوف صاحبه سانين ، لم يزد على أن قال : « ها . . اذن قررت » ، ثم ارتدى معطفه ودس قدميه فى حذاءين من المطاط فوق الخفين ، وسد أذنيه بصمامين من القطن المندوف ، رغم أن الوقت صيف ، ونزل ..

كان الخدم قد نقلوا الطرود الكثيرة الى العربة حسب أوامره ، وحشوا مكانه بوسائد الحرير ، ووضعوا حولها أكياسا صغيرة ، ووضعوا عند مكان القدمين سلة مليئة بالمئونة ، وحزموا الحقيبة الكبيرة الى جانب الحوذى .

فوزع بولوزوف « البقاشيش » عليهم جميعا ، ثم صعد الى العربة وهو يئن ، مستندا على ذراعي البواب الذى تقدم يسنده بكثير من الاحترام والتعظيم ، ثم جلس فى مكانه بعد ان جس الطرود من حوله هنا وهناك ، ثم أخرج من جيبه سيجارا فأشعله ، وبعد ذلك كله تفضل فأشار الى سانين بحركة من اصبعه ان يصعد الى العربة ، فصعد سانين وجلس الى جانبه .

وطلب بولوزوف من البواب أن ينصح الحوذى باليقظة والانتباه ، اذا كان يحرص على « بقشيشه » !

وقرقع الموطيء وهو يرفع ، واصطفقت الابواب وهي تغلق . . . وتحركت العربة ! . . .

— ٣٣ —

القطار في أيامنا هذه يقطع المسافة بين فرنكفورت وفسبادن في أقل من ساعة . اما فى ذلك الزمان فكانت العربات تحتاج فى قطعه الى ثلاث ساعات ، وكانت تبدل أثناء ذلك خمس مرات .

لم يتكلم بولوزوف الا قليلا جدا ، وكان يبدو كالنائم ، ويهتز ويقلب سيجاره بين شفتيه رغم ذلك . لم ينظر من النافذة مرة واحدة . ان منظر الطبيعة لا يعنيه . حتى لقد صرح قائلا : « الطبيعة هى الموت فى نظرى ! » .

وكان سانين صامتا ايضا ، ولم يعبأ بمناظر الطبيعة ، لانه مستغرق استغراقا تاما فى أفكاره وذكرياته .

وكان بولوزوف ، فى المحطات ، يدفع المال بلا مساومة ، وينظر الى الساعة التى فى معصمه ، ويوزع « البقاشيش » على السائقين ، كل على قدر حماسته وهمته .

وفى أثناء الطريق أخرج من السلة برتقالتين فاختار فضلاهما لنفسه ومد الاخرى الى سانين .

وبينما كان بولوزوف يقشر برتقالته بأظافره القصيرة البيضاء انفجر سانين فى ضحكة صاخبة على حين فجأة ، وهو ينظر الى رفيقه :

— ما الذى يضحكك ؟

— رحلتنا هذه ! . .

— لماذا ؟

سأله بولوزوف هذا السؤال وهو يلتهم ربع البرتقالة لقمة واحدة !

— عجيبة سفرتنا هذه ! بالامس كنت لا أتصور أن القاك أكثر مما أتصور ان القى امبراطور الصين . . . ثم هأنذا اليوم مسافر معك ، لأبيع أرضى لزوجتك التى لم أرها فى حياتى !

قال بولوزوف :

— كل شىء يحدث . وكلما تقدمت فى السن رأيت ما هو اعجب ! أنظر مثلا : هل تتصور صديقك بولوزوف على صهوة جواد ، ملحقا بخدمة أحد أصحاب السعادة ؟ طبعا لا . . . ومع ذلك فقد حدث

هذا . . . وحين رآني الدوق ميخائيل بافلوفتش صاح بي :
« أسرع أسرع . . . ألـكز هذا البغل » .
حك سانين أذنه وقال :
ـ قل لي ، ياهيبوليت سيدروفتش : كيف هي زوجتك ؟ حدثني عن طباعها ! يجب أن أعرف شيئا عن الشخص الذي سأتعامل معه . . .
قال بولوزوف في كثير من الحقد :
ـ كان في وسع الدوق أن يأمرني : « اسرع . . . اسرع . . . » ولـكن كان في وسعي أنا أيضا ان أنزل عن الحصان ! وقد قلت لهم : هاكم الرتب . . . وهاكم النياشين . . انني لا أريدها . . ها تريد ان احدثك عن زوجتي ؟ طيب . . . زوجتي انسان كسائر بني الانسان . . . ولـكن لا « تحاول ان تدس اصبعك في فمها » ، انها لا تحب هذا . . . وقبل كل شيء يجب ان تضحكها ! قص عليها حكايات حب . . . على شرط أن تكون حكايات مضحكة . . . هل فهمت ؟
ـ مضحكة ؟ كيف ؟
ـ طبعا ! لقد قلت لي انك تحب . . . وانك تريد أن تتزوج ! طيب . . . قص عليها مغامرتك !
استاء سانين ، فقال :
ـ ما الذي في زواجي يضحك ؟
فاكتفى بولوزوف بأن نظر الى سانين ، وكان عصير البرتقال يسيل على ذقنه .
قال سانين بعد لحظات من صمت :
ـ هل زوجتك هي التي طلبت منك أن تأتي الى فرنكفورت لشراء هذه الاشياء ؟
ـ نعم .
ـ وما الذي اشتريته ؟
ـ لعب .
ـ لعب . . . هل لك اطفال ؟
فلما سمع بولوزوف هذا السؤال ابتعد عن سانين ، وقال له :
ـ ما هذا الذي تقوله ؟ اطفال ؟ لماذا الاطفال ؟ ان اللعب التي اشتريتها هي أشياء للزينة ، هي أدوات زينة !
ـ أانت تجيد شراء مثل هذه الاشياء ؟

ـ طبعا ! . .
ـ ولكنك قلت لى انك لا تتدخل فى شئون زوجتك !
ـ فى هذه الشئون أتدخل . . . شئون الزينة . . . هذا يسليني . . . ان زوجتى تعتمد على ذوقى . . . ثم اننى أحسن المساومة .

وصار بولوزوف يباعد جمله بعضها عن بعض . كان واضحا ان التعب قد نال منه .

ـ هل زوجتك غنية جدا ؟
ـ من ناحية الغنى ، غنية ! ولكنها تحتفظ بالثروة كلها لها .
ـ يخيل الي مع ذلك انه ليس لك ان تشتكى وان تتبرم ! فانت تعيش فى بحبوحة !

ـ الست زوجها . . هه . . هذا الذى ينقصنى . . ان أعيش فى ضيق ! . . لاحظ اننى أقدم لها خدمات كثيرة . . . فهى تستفيد منى ! ثم اننى لا اضايقها فى شىء ! زوج مريح !

قال بولوزوف ذلك ثم جفف وجهه بمنديل وزفر زفرة شاقة ، كأنه يقول : « ارحمنى . . ارحمنى . . لا تحملنى على الكلام أكثر من هذا . . الا ترى ان الكلام يتعبنى ؟ »

فتركه سانين وشأنه ، وغرق فى تأملاته من جديد .

ان الفندق الذى وقفت أمامه العربة فى فسبادن أقرب الى قصر منه الى فندق ، وسرعان ما دقت أجراسه فى الممرات ، وقام فى الفندق هرج ومرج .

واقبل خدم يرتدون اللباس الرسمى ، وجاء البواب المطرزة ثيابه بخيوط الذهب ففتح باب العربة .

فنزل بولوزوف مظفرا ، واخذ يصعد السلم المعطر المفروش بالسجاد .

وهرع يستقبله رجل يلبس رداء رسميا أسود ويبدو من هيئته انه روسى : انه تابع السيد بولوزوف .

فأعلن له السيد بولوزوف انه سيصطحبه من الآن حيثما يذهب ، لانهم قد تركوه أمس ، فى فرنكفورت ، طوال الليل ، بدون قطرة من ماء ساخن !

فظهر على وجه التابع معنى الدهشة والرعب ، ثم أسرع ينحنى فخلع عن خفى سيده حذاءى المطاط .

قال بولوزوف :

ـ هل ماريا نيقولاثينا فى حجرتها ؟
ـ صاحبة السمو فى حجرتها . . . صاحبة السمو ترتدى ملابسها . . . صاحبة السمو ستتناول طعام الغداء على مائدة الكونتيسة لاسونسكى .
ـ ها . . . على مائدة الكونتيسة . . . اسمع : لقد تركت فى العربة ملابس . . . فاذهب الى العربة ، واحمل الى هذه الملابس بنفسك . أما أنت ، يا ديمترى بافلوفتش ، فاحجز غرفة ثم تعال الى ، هنا ، بعد ثلاثة ارباع الساعة . . . سنتغدى معا .
قال بولوزوف ذلك ثم مضى . وذهب سانين فطلب ان تحجز له غرفة بسيطة متواضعة . حتى اذا انتهى من ارتداء ملابسه ، ونال قسطا من الراحة ، دخل الجناح الواسع الذى يحتله « صاحب السمو الامير بولوزوف » .
فوجد « سموه » جالسا على أريكة من المخمل الساطع فى وسط صالون أنيق باهر .
لقد استحم صديق سانين ، خلال هذه المدة ثم خرج من الحمام فخلع من على جسمه ثوبا من ثياب المنزل ، صنع من جيد الحرير ، ووضع على رأسه طربوشا احمر زاهيا بلون الارجوان .
فاقترب منه سانين وأخذ يتفرس فيه .
ظل بولوزوف جالسا ، لا يتحرك ، كأنه صنم فى محراب . ولم يلتفت نحو سانين ، ولا هز حاجبيه ، ولا نطق بحرف .
انه لمنظر جليل رائع حقا . . . تأمله سانين فى كثير من الاعجاب .
وفيما كان سانين يهم أن يقطع هذا الصمت الوقور ، اذا بباب الغرفة المجاورة يفتح ، فتطل منه امرأة شابة جميلة ، ترتدى ثوبا من الحرير الابيض مزينا بمحزم أسود ، وعلى معصميها وفى جيدها تلتمع أحجار الماس .
انها ماريا نيقولاثينا بولوزوف .
كان شعرها الاحمر الكثيف يتدلى على جانبى رأسها ضفائر تستعد لرفعها الى فوق .

— ها . . . معذرة . . .

هكذا صاحت ماريا نيقولاثينا وهى تبتسم ابتسامة امتزج فيها خجل بسخر .

ورفعت بيدها طرف احدى جدائلها ، ونظرت الى سانين بعينيها الواسعتين الصافيتين .

قالت تخاطب زوجها :

— لم اكن قد عرفت انك عدت !

قال بولوزوف وهو يشير الى سانين باصبعه ، دون ان يتحرك من مكانه :

— سانين بافلوفتش ، صديق من أصدقاء الطفولة .

— أعرف ذلك ، لقد سبق أن حدثتنى عنه . . . سعيدة بمعرفتك . . . ولكننى جئت اطلب اليك مساعدة يسيرة ياهيبوليث سيدروفتش .. ان وصيفتى اليوم خرقاء .

— تريدين أن أصفف لك شعرك ؟

— نعم ، أرجوك ، ومعذرة .

رددت ماريا نيقولاثينا هذا ، وهى تبتسم تلك الابتسامة نفسها .

وحيت سانين بحركة من رأسها ، ثم استدارت ومضت .

لقد كان ظهورها خاطفا ، واختفاؤها خاطفا ... ان لها جسما رشيقا ، وجيدا فاتنا ، ونحرا مضيئا .

نهض بولوزوف ، ومضى يتبع امرأته الى الغرفة المجاورة بخطوات ثقيلة .

لم يراود سانين اى شك فى أن المرأة الشابة كانت تعرف انه فى صالون « الامير بولوزوف » ، ولم يراوده اى شك فى انها لفقت هذه التمثيلية عن عمد ، لتكشف له عن شعرها الجميل ، الذى يستحق أن يرى والحق يقال .

وسر سانين ، قائلا لنفسه : « من يدرى ! لقد ارادت أن تبهرنى بجمالها ، فعسى أن تتساهل معى فتشترى الارض ! » .

كانت نفسه قد بلغت من الامتلاء بذكرى جيما أن جميع النساء لايعنينه ، حتى لا يكاد يراهن. وقد اكتفى هذه المرة بأن يقول لنفسه: « نعم ، لقد صدقوا حين قالوا ان امرأته .. جميلة جدا ! »

ولا شك انه لو كان في ظروف أخرى غير هذه الظروف لعبر عن احساسه غير هذا التعبير .

ان ماريا نيقولاثينا (واسمها قبل الزواج كوكشكين) امرأة لايستطيع المرء الا أن ينتبه اليها ... ان جمالها ليس بالجمال الخارق ... حتى أن قسماتها تومىء فورا الى أصلها الوضيع : الجبين ضيق ، الانف أقنى على شيء من السمنة ، الجلد ليس بالجلد الناعم الرقيق ، ولا رشاقة في اليدين والقدمين ... ولكن ما قيمة هذه التفاصيل كلها !! ...

صحيح أن من يراها لا يقف أمامها مشدوها « بجمال مقدس » على حد تعبير بوشكين . ولكنه يقف على كل حال ، يقف مفتونا بجسم نضير زاهر قوى ، جسم امرأة ... روسية أو غجرية ... ان من يراها لا يملك الا أن يقف أمامها .

غير أن صورة جيما كانت تحمى سانين ، كأنها الدرع المثلث الذى غناه الشاعر .

وعادت ماريا نيقولاثينا بعد عشر دقائق ، يصحبها زوجها واقتربت من سانين ... يا لمشيتها ما أشد ما فيها من اغراء ! ..

ان في مشيتها من الاغراء ما كان يجعل بعض المولهين ـ ما أبعد ذلك الزمان الآن ! ـ يجنون افتتانا حين يرونها سائرة ! وكان أحدهم يقول: « حين تقبل عليك هذه المرأة فهى السعادة كلها مقبلة عليك ! » .

مدت يدها الى سانين ، وقالت تخاطبه بصوت لطيف رفيق :

ـ أرجو الا تذهب قبل أن أعود .. ولن أتأخر على كل حال ..

فانحنى سانين فى احترام ، واتجهت ماريا نيقولاثينا نحو الباب ، فلما صارت عند العتبة ، التفتت برأسها وراء وابتسمت ، ثم خرجت، مخلفة في نفس سانين ذلك الاحساس عينه الذى أحس به أول مرة

حين تبتسم ماريا نيقولاثينا ، تظهر فى كل خد من خديها لا غمازة واحدة ، بل ثلاث غمازات ... وتضحك عيناها مثلما تضحك شفتاها الطويلتان ، القرمزيتان ، الملتمعتان ، اللتان تجاورهما من الجهة اليسرى شامتان صغيرتان .

وجر بولوزوف نفسه الى الاريكة . لم يقل شيئا ، الا أن ابتسامة

ساخرة غريبة ، كانت تخدد وجنتيه السمينتين الباهتتين المغضبنتين، من حين الى حين .

كان يبدو كأنه عجوز ، مع أن عمره لا يزيد على عمر سانين الا ثلاثة أعوام .

وجلس الرجلان الى المائدة . ان الطعام الذى قدمه بولوزوف الى سانين خليق بأن يرضي ارهف الناس ذوقا ، وألطفهم حسا . ولكن سانين وجد العشاء طويلا طويلا حتى لا يكاد ينتهي ...

كان بولوزوف يتناول طعامه ببطء ... « كان يتناوله بعاطفة واقتناع ، واهتمام ... » . وكان يميل برأسه الى الطبق حتى ليكاد يغطسه فيه ... وكان يتشمم كل لقمة قبل أن يزدردها .

وكان يتمضمض بالخمر أولا ، ثم يبتلعه ممصمصا مقرقعا .

وحين جاء دور اللحم المقلى ، انحلت عقدة لسانه فجأة ! ولكن فيم تحدث ؟ في الخراف التي يريد أن يجيء الى مزرعته بقطيع كامل منها ... وتحدث عن هذه البهائم في حب ... وذكر تفاصيل تلو تفاصيل .. وكان لا يستعمل في الحديث عنها الا صيغ التصغير .. تحببا وتوددا .

وبعد أن تناول فنجانا من القهوة ، الساخنة الى درجة الغليان (وقد ذكر للخادم ، عدة مرات ، أثناء الطعام ، بأن القهوة قدمت اليه أمس باردة ، باردة كالثلج) ، عضعض بأسنانه الصفراء المعقوفة ، سيجارا من سيجار الهافان ، ثم ما لبث أن نام ، على عادته . ففرح سانين بذلك فرحا كبيرا .

اخذ الفتى يذرع الصالون جيئة وذهابا ، وينكش السجادة الكثيفة بقدميه ، وهو يفكر في حياته المقبلة مع جيما ، وفي الانباء التي يمكن أن يحملها اليه الغد .

ولكن بولوزوف استيقظ من نومه قبل الموعد الذى اعتاد أن يستيقظ فيه . فانه لم ينم الا ساعة ونصف ساعة . فلما صحا شرب كأسا من ماء سلتس مع الثلج ، والتهم ثماني ملاعق من معقود الفاكهة ، معقود كييف الروسي الحقيقي ، قدمه له تابعه في قطرميز أخضر قاتم ، وقال بولوزوف انه بدون هذا المعقود لا يستطيع أن يعيش ، ثم رفع نحو سانين عينيه المنتفختين قليلا ، وسأله هل هو مستعد لان يلعب معه بالورق .

قبل سانين ، لانه خشي أن يستأنف بولوزوف حديثه عن الخراف وأن يدخل في تفصيلات ثقيلة لا أول لها ولا آخر .

وجاء الخادم بالورق وبدأ اللعب . وطبيعى أنهما ما كانا يلعبان للمال بل لتزجية الوقت . فلما عادت ماريا نيقولاثينا من عشائها على مائدة الكونتيسة لاسوفسكى ، وجدت الرجلين عاكفين على تسليتهما البريئة .

وقد انفجرت ضاحكة حين رأت الورق على منضدة اللعب . فهب سانين واقفا ، الا أنها قالت له :

– بل أكملا اللعب ، فانى ذاهبة أغير ثوبى ثم أعود .

ومضت بين حفيف ثيابها ، وخلعت قفازيها وهى تسير .

فلما عادت بعد أن أبدلت ثوب السهرة بغلالة هفهافة مفتوحة الاكمام ، من حرير بنفسجي اللون ، وعلى خصرها حبل مضفور ، جلست الى جانب زوجها ، وجعلت تنتظر نهاية اللعب . ولكنها سرعان ما ملت الانتظار ، فخاطبت زوجها قائلة :

– يكفى هذا الآن يا « فطيرتى » الحبيبة .

فدهش سانين من ندائهـا هذا لزوجهـا ، فابتسمت له ابتسامة مرحة . وأردفت تخاطب زوجها :

– انك لتكاد تسقط من شدة النعاس . هاك يدى فقبلها ، وامض الى سريرك ، وسأبقى أنا مع السيد سانين لنتحدث قليلا .

قال بولوزوف وهو ينهض عن أريكته متثاقلا :

– ليس بى نعاس ، ولكننى سأمضى مع ذلك لاستلقى على السرير .

فمدت له يدها دون أن تكف عن الابتسام وهى تنظر الى سانين .

ونظر بولوزوف أيضا الى صديقه ومضى دون استئذان .

قالت ماريا نيقولاثينا ، فى حرارة ، وهى تضع مرفقيها العاريين على المنضدة ، وتضرب اظافرها واحدا بآخر من فراغ الصبر :

– والآن حدثنى عن قصتك . لقد قيل لى انك على أبواب الزواج ، فهل هذا صحيح ؟

حين طرحت ماريا نيقولاثينا هذا السؤال مالت برأسها قليلا الى جانب ، لتنظر فى عينى الفتى نظرة اثبت وأعمق .

كان يمكن أن يضطرب سانين لهذا السؤال من السيدة بولوزوف،رغم انه ليس غرا ورغم أن له تجربة سابقة مع النساء ، لولا أنه رأى فى هذه الالفة التى تظهرها السيدة بولوزوف وفى عدم تحرجها بشير خير فى أمر مشروعه . قال فى نفسه : « لا بأس فى مداعبة نزوات هذه السيدة الغنية » . ثم أجاب عن سؤالها بقوله :

— نعم انني على ابواب زواج .

— هل خطيبتك اجنبية ؟

— هي ايطالية .

— عرفتها بفرنكفورت ؟

— نعم ، يا سيدتى ، بفرنكفورت .

— هل يمكن أن أعرف من هى هذه الفتاة ؟

— طبعا ... هى بنت صاحب متجر حلوى .

فلما سمعت ماريا نيقولاثينا هذا الجواب حملقت من الدهشة وقوست حاجبيها . ثم قالت بصوت متراخ :

— شيء جميل ... شيء رائع ... كنت أحسب أن العالم لم يبق فيه رجال مثلك ... بنت صاحب متجر حلوى ...

قال سانين بشيء من العزة :

— أيدهشك هذا ؟ .. أنا رجل لا أبالى هذه الاعتبارات ..

— أولا ، هذا لايدهشني أبدا ... أنا أيضا لا أبالى هذه الاعتبارات ... انني ابنة فلاح ! ...

بهذا صاحت السيدة بولوزوف تقاطع سانين . وأردفت :

— لا لا ، انك لاتدهشني بل تسرني ... وأنت أخيرا رجل لا يخشى الحب ! ... هل تحبها ؟

— نعم ياسيدتي .

— أهي جميلة جدا ؟

استتاه سانين من هذا السؤال ، ولكن لم يكن بد من الاجابة ، فقال :

— كل رجل يرى وجه المرأة التى يحبها أجمل من وجوه سائر

النساء ... ولكن خطيبتي جميلة حقا ! ...

ـ حقا ؟ من أى نموذج هى ؟ النموذج الايطالى ، الكلاسيكى ؟

ـ نعم ، قسماتها منسجمة كل الانسجام .

ـ هل تحمل صورة لها ؟

ـ لا

ـ ما اسمها ؟

ـ جيما

ـ وأسمك أنت

ـ ديمترى ..

ـ فقط ؟

ـ بافلوفتش .

قالت ماريا نيقولاثينا ، بذلك الصوت المتراخي نفسه :

ـ هل تعلم أنك تعجبنى ؟ .. انك تعجبنى كثيرا يا ديمترى بافلوفتش .. لا شك أنك فتى شهم .. ناولنى يدك ، ولنكن صديقين ...

وصافحت يد الفتى مصافحة قوية بأصابعها الرقيقة البيضاء .. كانت يدها أصغر قليلا من يد سانين، وأكثر حرارة ورقة، وأكثر مرونة وحياة !

ـ هل تعرف ماذا يراودنى الآن ؟

ـ لا

ـ ألا تغضب اذا صارحتك بالفكرة التى تراودنى ؟

قلت لى منذ لحظة انك خاطب، أما من سبيل الى الايكون الأمر كذلك؟

قطب سانين حاجبيه وقال :

ـ لست أفهمك ياسيدتى ...

فضحكت ماريا نيقولاثينا ضحكة صغيرة ، ثم هزت رأسها فدفعت الى الوراء شعرها الذى كان يتدلى على خديها .

قالت وهى حالمة ذاهلة :

ـ انه لذيذ حقا .. فارسى .. كيف يصدق المرء بعد أن يراه ما يقال من أن المثاليين لا وجود لهم فى هذا الزمان !

كانت ماريا نيقولاثينا تتكلم طوال الوقت باللغة الروسية ، بنبرة صافية هى نبرة شعب موسكو لا نبرة طبقة النبلاء .

ـ لاشك أنك نشأت فى البيت ، بين أسرة من الطراز القديم الذى يخاف الله ؟ ...

قالت ذلك ثم أضافت تسأله على الفور :
ـ من أى ولاية أنت ؟
ـ من ولاية تولا .
ـ نحن اذن من « جرن » واحد . ان أبى ... هل تعرف من كان أبى ؟
ـ نعم .
ـ لقد ولد أبى في تولا ... يكفى هذا الآن ... ولننتقل الى الحديث في الاعمال .
ـ في الاعمال ؟ ماذا تريدين أن تقولى ؟
طرفت ماريا نيقولاثينا عينيها ..
كانت نظرتها ، اذا هى طرفت عينيها ، تكتسى معنى فيه تودد وفيه شيء من سحر . أما حين تحملق فان ما في عينيها من بريق ساطع يكاد يكون باردا ، لايدل على شيء من طيبة ، بل يخيف .وان حاجبيها الطويلين الكثيفين المقوسين الناعمين هما اللذان يجملان عينيها خاصة .
ـ ما الذى جاء بك الى هنا اذن ؟ أنت انما جئت لتبيعني أرضك ، لانك في حاجة الى مال ، أليس كذلك ؟
ـ نعم أنا في حاجة الى مال .
ـ الى كثير من المال ؟
ـ احتاج الآن الى بضعة ألوف من الفرنكات ... ان هيبوليت سيدوروفتش يعرف أرضي .. في وسعك أن تستشيريه . ولست أطلب ثمنا عاليا .
حركت ماريا نيقولاثينا رأسها من يمين الى شمال . ثم قالت وهى تقطع كل كلمة من كلماتها وتضرب ظهر سانين بطرف أصابعها :
ـ أولا ، لم أتعود أن استشير زوجى ، الا فيما يتصل بشئون زينتي ... فهو في هذا المجال خبير ... ثانيا ، لماذا لا تطلب مني ثمنا عاليا ؟ انني لا أريد أن استغل الظرف الذى أنت فيه : انك الآن محب وقادر على جميع التضحيات ... وتريد أن تخفض الثمن للحصول على المال ... ولكن لا .. انني لا أقبل تخفيض سعر أرضك .ماذا ؟ أأستغل حالتك بدلا من أن اشجعك ، بكل ما اوتيت من قوة ، على هذه العواطف النبيلة التي تحملها ؟ لا لا ، ليس هذا من عادتى ..

تساءل سانين : ترى أليست محدثته تمزح ؟

ثم قال يخاطبها بينه وبين نفسه : « ها ... أنا معك ، يجب أن يكون المرء يقظا حذرا » .

وجاء خادم يحمل السماور وأقداح الشاى ، وزبدة ، وفطائر على صينية كبيرة ، وضعها على المائدة بين سانين والاميرة ثم خرج .

فصبت المراة الشابة قدحا من الشاى لسانين . ثم قالت له وهى تضع السكر فى قدحه بطرف أصابعها رغم أن الملقط كان فى السكرية :

ـ لا تؤاخذنى !

ـ سيدتى ، من يد جميلة هذا الجمال ...

ولم يتم جملته المبتذلة ، وأوشك أن يختنق وهو يبتلع الجرعة الاولى من الشاى .

وكانت الاميرة أثناء ذلك تنظر اليه بعينيها الزرقاوين الصافيتين .

واستأنف سانين يقول :

ـ انما قلت اننى لن أطالب بثمن عال ، لانك الآن فى خارج البلاد . وربما لم يكن مابين يديك من مال بالقدر الكبير ... ثم ان ظروف البيع هذه ليست بالظروف العادية .. وأنا أحسب حساب جميع هذه الاعتبارات ...

كان سانين يتردد فى كلامه ويتعثر ويتلكأ ، بينما كانت ماريا نيقولاثينا قد ارتمت الى وراء مستندة على ظهر أريكتها ... وأخذت تنظر اليه تلك النظرة الصافية اليقظة نفسها .

وسكت أخيرا .

فقالت تشجعه :

ـ أكمل ، أكمل ... تكلم .

فأخذ سانين عندئذ يصف أرضه ، فذكر مساحتها ، وموقعها ، وقال ان البيت فيها يطل على منظر جميل رائع . وكانت ماريا نيقولاثينا لا تحول عنه بنظرتها الصافية ، وكانت شفتاها تختلجان اختلاجا خفيفا بدون أن تبتسم ... كانت تضعضع شفتيها .

وشعر سانين بشىء من الحرج . فسكت من جديد .

قالت ماريا نيقولاثينا :

ـ ديمترى بافلوفتش ...

وكانت تريد أن تتكلم ، ولكنها توقفت فجاة ...

ثم استأنفت تقول بعد لحظة :

ـ ديمترى بافلوفتش ... أنا واثقة بأن حصولى على أرضك

صفقة رابحة لي ، واننا سنتفق على الثمن ... ولكن لابد أن تمهلني قليلا ، حتى انتهي الى قرار ... أمهلني يومين . هل تستطيع أن تبقى بعيداً عن خطيبتك مدة يومين ؟ لن أحجزك أكثر من ذلك لحظة واحدة بغير ارادتك ... أحلف لك ...واذا كنت في حاجة الى خمسة آلاف أو ستة آلاف فرنك ، فأنا مستعدة حتى لاقراضك هذا المبلغ .

فنهض سانين وقال لها :

ـ انني أشكر لك هذا العرض اللطيف ... انه لغاية انكرم منك أن تفكري في مساعدتي وأنت لاتكادين تعرفينني . ولكنني أفضل أن أنتظر القرار الذي تنتهين اليه بشأن شراء الارض . اذا كنت تصرين على بقائي هنا يومين ، فسأبقى .

ـ نعم ياديمتري بافلوفتش ، أصر ... هذا يشق عليك ، يشق عليك جدا ، أليس كذلك ؟ اعترف بأنه كذلك !

ـ انني أحب خطيبتي ، وليس يهون عندي أن أفارقها !

ـ انك لرجل من ذهب ، حقا ! وأني لاعدك بألا أسوف ولا أماطل ... ماذا ؟ أتذهب منذ الآن ؟

قالت ماريا نيقولاثينا هذا وهي تطلق من صدرها زفرة !

ـ الوقت متأخر .

ـ وأنت في حاجة الى الراحة بعد السفر ... وبعد لعب الورق مع زوجي ! قل لي ، أأنت صديق حميم لزوجي ؟

ـ كنا زميلين في المدرسة !

ـ هل كان منذ ذلك الوقت كما هو الآن ؟

ـ بأي معنى « كما هو الآن » ؟

انفجرت ماريا نيقولاثينا ضاحكة ، واصطبغ وجهها بحمرة شديدة ، وحملت منديلها الى شفتيها ، ثم نهضت وهي تترنح ، فاقتربت من سانين ومدت اليه يدها .

فحياها واتجه نحو الباب .

ـ الى الغد ... صباحا ... في ساعة مبكرة ... هل تفهمني ؟

فالتفت سانين فرأى ماريا نيقولاثينا قد عادت فانقلبت على أريكتها وشبكت يديها وراء رأسها .

ان كميها الواسعين قد انزلقا حتى الكتفين ، وكان يستحيل على المرء الا يعترف بأن هذا الوضع مغر ، وان هذه المرأة كلها ذات جمال ساحر .

انتصف الليل منذ مدة طويلة والمصباح لايزال يضيء غرفة سانين . كان جالسا الى المنضدة ، يكتب الى « حبيبته جيما »

قص عليها كل ما وقع ، ووصف لها أسرة بولوزوف - الرجل وزوجته - وافاض فى التعبير عن عواطفه ، وختم رسالته بأن ضرب لها موعدا للقاء بعد ثلاثة أيام !!! (هكذا أتبع عبارته بثلاث نقط تعجب) .

ونهض من نومه فىساعة مبكرة منالصباح ، فأودع رسالتهالبريد ، ومضى يطوف قليلا فى حديقة « الاستشفاء » ، حيث كانت تعزف الموسيقى منذ ذلك الوقت المبكر من الصباح .

لم يكن بالحديقة كثير من الرواد بعد . فتوقف سانين قليلا أمام الرواق الذى تعزف فيه الجوقة ألحانا منوعة واحتسى فنجانا منالقهوة ثم مضى يسير فى ممر بعيد بين الاشجار ، وجلس أخيرا على مقعد من المقاعد واستغرق فى أفكاره .

وفيما هو كذلك اذا بمقبض مظلة يلكزه على كتفه بشيء من القوة، فانتفض ...

ونظر فرأى ماريا نيقولاثينا واقفة أمامه ... انها ترتدى ثوبا بلون رمادى ضارب الى خضرة ، وقد وضعت على رأسها قبعة من نسيج دقيق أبيض ، ولبست قفازين جميلين من السويد ، انهاطرية ريانة نضيرة كصباح صيف ... وفى حركاتها وفى نظراتها لايزال يشيع شيء من خدر نوم هادىء ساج . قالت :

- صباح الخير ... أرسلت اليك من يسأل عنك . ولكنك كنت قد خرجت . لقد شربت الان كأسى الثانى من الماء المعدنى . أنهم يجبروننى هنا على شرب الماء المعدنى . لا أدرى لماذا ؟ أأنا مريضة، أنا ؟ وبعد شرب الماء يجب على أن أسير خلال ساعة كاملة ! هل تريد أن ترافقنى ؟ سوف نحتسى القهوة بعد ذلك !

قال سانين وهو ينهض :

- لقد تناولت القهوة ، ولكن يسعدنى أن أصحبك فى المشى .

- اذن هات ذراعك ... لا تخش شيئا ... خطيبتك ليست

هنا ... فلن تراك .
فضحك سانين ضحكة مصطنعة .
كان كلما تحدثت السيدة بولوزوف عن جيما يشعر بشيء من الانزعاج . وقد أطاع رغم ذلك ... فدست المرأة ذراعها في ذراعه ببطء واسترخاء وطوقتها والتصقت به .
قالت وهي تضع مظلتها المفتوحة على كتفها :
ـ من هنا ... أنا في هذه الحديقة كأنني في بيتي ... سوف أريك أجمل أركانها ... ولكن هل تعلم ؟ (كانت تستعمل هذا التعبير كثيرا) لن نتحدث الآن عن أرضك ...وبعد الافطار ندرس الموضوع على مهل . حدثني الان عنك ... أريد ان اعرف من هو الشخص الذي أسير معه ... فاذا كان يعنيك بعد ذلك أن أحدثك عن نفسي فعلت . هل تريد ؟
ـ ولكن ليس في حياتي شيء يستحق أن يروى ، ياماريا نيقولاثينا .
ـ عفوا عفوا ... انك لم تفهمني حق الفهم ... ليس في نيتي أن استرسل معك في شيء من مغازلة .
قالت ذلك ورفعت كتفيها . ثم أردفت :
ـ رجل له خطيبة كالتمثال جمالا ... ومن تضييع الوقت أن أحاول مغازلته ... لا لا ... أنت بائع وأنا مشترية . وأحب ان أعرف ماذا أشتري ... لا تهمني البضاعة التي أشتريها فحسب . بل يهمني ايضا بائع البضاعة ... تلك قاعدة كانت لابي في أعماله هيا ... انني أصغي اليك ! تستطيع أن تقفز مرحلة الطفولة ... ابدأ باليوم الذي سافرت فيه الى الخارج . أين كنت قبل أن تأتي الى المانيا ؟ لا تسرع كثيرا في سيرك ، فما من شيء يستحثنا على التعجل .
ـ كنت في ايطاليا وقد قضيت فيها بضعة أشهر .
ـ لكأنك اذن تحب كل ما هو ايطالي . لماذا لم تعثر على خطيبتك هناك ؟ ... هل تحب الفنون ؟ اللوحات ؟ أو لعلك تؤثر الموسيقى
ـ أحب الفنون ... أحب كل ما هو جميل .
ـ والموسيقى أيضا ؟
ـ والموسيقى أيضا .
ـ اما أنا فلا ! ... لا أحب الا الاغاني الروسية ... حتى انني لا أحب هذه الاغاني الروسية الا في القرية ، في الربيع ، حين الرقص

...هل تعلم ؟ لذيذ جدا منظر الفلاحين بقمصانهم الحمراء في المراعي النضرة .. تكلم ! ... لماذا لا تتكلم ؟

وكانت ماريا نيقولاثينا لا تحول نظرها عن سانين وهما يسيران .

وانها لفارعة القامة ، فكان وجهها في مستوى وجه الفتى تقريبا .

أخذ الفتى يحدثها عن أسفاره حديثا أخرق في أول الامر ، لانه يتكلفه على سبيل القيام بالواجب ، ولكنه ما لبث أن انتعش شيئا فشيئا فأخذ يتكلم بانطلاق وتدفق وغزارة . وكانت ماريا نيقولاثينا تجيد الاصغاء . وكان يبدو فيها من الصدق ما يحمل الاخرين على الصدق حملا .

كانت تملك تلك الموهبة الرهيبة التي يتحدث عنها كاردينال ريتس ، أعني « موهبة رفع الكلفة » .

وبعد الحديث عن الاسفار ، تحدث سانين عن حياته ببطرسبرج وعن شبابه . ولو كانت ماريا نيقولاثينا سيدة متكلفة من سيدات المجتمع الراقي اللاتي يحرصن على آداب اللطف والرقة أشد الحرص ، لما انساق سانين في حديثه هذا الانسياق كله، ولكن ماريا نيقولاثينا كانت امرأة منطلقة ، حتى لقد كانت تصف نفسها بأنها أشبه « بفتى مرح يكره التصنع » . على أن هذا لم يمنعها أن تسير الى جانبه متلوية متثنية ، وأن تميل عليه مستندة الى ذراعه ... وكانت لا تني تنظر في عينيه .

ان هذا « الفتى المرح » امرأة شابة تنشر فيما حولها جوا ساحرا من السكر والخدر ، جوا أخاذا من الهدوء والفتنة ، لاتنشره فيما حولهن الا السلافيات الهجينات ، جوا لا نستطيع نحن البشر الخطاة الضعاف أن نقاوم ما فيه من غواية .

دامت هذه النزهة في الحديقة ودام هذا الحديث ساعة كاملة ... لم يتوقفا خلالها مرة واحدة ، بل كانا يسيران دائما الى أمام ، الى أمام ... في هذه الطرق من الحديقة التي ليس لها نهاية ... كانا يجتازان الرابية ، فيتأملان جمال المناظر ، ثم يدلفان الى المنحدر ويغيبان في الظل بين الاشجار ، وقد تشابكت ذراعاهما لا تنفصلان لحظة .

كان سانين يؤاخذ نفسه : انه لم يتنزه يوما مع حبيبته الغالية جيما مدة طويلة هذا الطول كله . ان هذه المرأة تستأثر به الان من دون جيما .

وقد سألها عدة مرات :

ــ الم تتعبى ؟
فكانت تجيبه بقولها :
ــ انا لا أتعب أبدا !
وكان يتفق لهما أن يصادفا بعض المتنزهين . فكانوا جميعا يحيون الاميرة بولوزوف ، بعضهم باحترام ، وبعضهم بما يشبه الذل . وقد هتفت الاميرة بولوزوف لاحدهم ، وهو فتى اسمر انيق ، هتفت له من بعيد تقول :
ــ كونت ، يجب الا تأتي الى اليوم ولا غدا .
فرفع الكونت قبعته احتراما ، وانحنى انحناءة طويلة ، دون أن ينطق بكلمة .
سألها سانين ، لان شيطان حب الاطلاع استولى عليه كما يستولى على جميع الروس :
ــ من هو هذا الشاب ؟
ــ من هو ؟ فتى فرنسى ... أمثاله هنا كثيرون . وهو يتودد الى ويتقرب منى ويحاول أن يغازلنى ... آن لنا ان نشرب القهوة ... فلنعد ... انا واثقة أنك تموت جوعا ! لا شك ان عريسى قد فك التصاق عينيه !
« عريسى ! فك التصاق عينيه ! ما هذه المخلوقة العجيبة ؟ ثم ما أصفى هذه النبرة الباريزية ! »
هكذا قال سانين يحدث نفسه .
ولم تخطىء ماريا نيقولاثينا الظن . فحين عادا الى الفندق وجدا « عريسها » ، « فطيرتها الصغيرة » قد جلس امام المائدة المحدودة ، وعلى رأسه طربوش .
قال فى حدة :
ــ لقد مللت الانتظار ، وكدت أشرب القهوة وحدى .
فهتفت ماريا نيقولاثينا فى مرح :
ــ طيب طيب . انت غاضب ؟ هذا يفيد صحتك ؟ انك لا تقوم بأي تمرين ! هيا اقرع الجرس . سوف نشرب القهوة ، أطيب قهوة فى العالم ، سنشربها فى أقداح من ساكس ، على غطاء أبيض كالثلج .
وخلعت قبعتها ، وقفازيها ، وأخذت تصفق .
نظر اليها بولوزوف من تحت حاجبيه .
ثم قال لها بصوت خافت :
ــ ما الذى جعلك اليوم مرحة هذا المرح يا ماريا نيقولاثينا ؟

ـ هذا ليس من شأنك ياهيبوليث سيدروفتش ! اقرع الجرس . اجلس ياسيد سانين ، واشرب القهوة مرة ثانية .هذا الصباح . آه ما أكثر ما احب أن آمر . . .

هذه لذتي الكبرى !

فدمدم بولوزوف يكمل :

ـ وأن تطاعى . . .

ـ طبعا ، وأن أطاع . ولهذا أنا سعيدة معك .. أليس كذلك يا فطيرتي الصغيرة ؟ ها . . . ها هي ذي القهوة !

وكان على الصينية الكبيرة التي جاء بها الخادم ، برنامج سهرة المساء ، فأسرعت ماريا نيقولاثينا تتناوله ، فما ان ألقت نظرة عليه ، حتى صاحت غاضبة :

ـ دراما . . . دراما المانية ! هي على كل حال خير من كوميـــديا المانية ! احجز لي « لوج » .. بل « بينوار » .. بل .. أحجز لي « بينوار أجانب » .. أفضل هذا .. « بينوار اجانب » ، هل فهمت ؟

ـ ولكن ما ذا اعمل اذا وجدت أن سعادة « مدير المدينة » قد سبق الى حجزه ؟

ـ تدفع لسعادته عشر ليرات ذهبية ، فيصبح « اللوج » لي . . . فهمت ؟

فخفض الخادم رأسه في حزن وخضوع .

ـ ديمتري بافلوفتش ، ستصحبني الى المسرح ! صحيح أن الممثلين الالمان لايطاقون ، ولكنك ستصحبني ؟ موافق ، هه ؟ ما ألطفك ... وانت ، يا فطيرتي الصغيرة ، الا تأتي معنا ؟

فدمدم يجيبها وفنجان القهوة بين شفتيه :

ـ كما تريدين .

ـ هل تعلم ؟ ابق في البيت ... فانك تنام في المسرح ... ثم انك لا تفهم الالمانية فهما جيدا . اكتب للوكيل جوابا على رسالته بشأن الطاحون .. وطحين الفلاحين . . . قل له انني لا أريد .. لا أريد .. بهذا تملأ السهرة كلها . . .

ـ طيب .

ـ انك لفتى عاقل ! والآن ، ما دمنا قد تحدثنا عن الوكلاء وما الى ذلك ، فلنبحث المسألة الاساسية ... مر الخادم ان يحمــل ما على المائدة . . . والآن ابسط لنا الموضوع يا سيد سانين . قل لنا الثمن الذي تطلبه ، وشروط الدفع ، وكل شيء . . .

قال سانين بينه وبين نفسه « هانحن وصلنا ... اخيرا » .
وأردفت السيدة بولوزوف تقول :

ـ لقد سبق أن حدثتني في الامر ، فوصفت لى ارضك أحسن وصف ، ولكن « فطيرتي الصغيرة » لم تكن معنا ... ولا بد أن يكون على علم بالموضوع ... انه ليسعدني أن احس ان فى وسعى أن أسهل لك زواجك ... ثم انني قد وعدتك أن ندرس المسألة بعد الافطار ، وانا حريصة على الوفاء بوعودى دائما ... اليس كذلك يا صديقى هيبوليت سيدروفتش ؟

ففرك بولوزوف وجهه براحتي يديه وقال :

ـ هذه هي الحقيقة بعينها ... انت لا تكذبين أبدا على أحد .

ـ ابدا ابدا ... ولن أكذب على أحد ما حييت ...
هيا يا سيد سانين ... « ترافع فى قضيتك » على حد تعبير المحاكم .

« ترافع سانين فى قضيته » ، اى أخذ يصف ارضه مرة ثانية ، ولكن دون أن يشير الى جمال الطبيعة ، وكان من حين الى حين يطلب الى بولوزوف أن يؤيد ما يذكره « الوقائع والارقام » .

ولكن بولوزوف كان يكتفى بهز رأسه مدمدما . ترى أكان يؤيد لا أكان ينكر ؟ حاذق من يستطيع أن يعرف ! ..

على أن ماريا نيقولاثينا لم تكن فى حاجة الى الاستعانة برأى زوجها ... وقد برهنت على انها امرأة تعرف شئون الاعمال معرفة كبيرة . حتى لقد كانت على علم كامل بجميع ما فى ادارة الاراضى من اسرار ! وقد استفهمت عن كل شيء ، ودخلت فى أدق التفاصيل ، ووضعت النقاط فوق الحروف كما يقال .

ودام هذا ساعة ونصف ساعة . فكان سانين يشعر بكل أنواع العذاب التى يشعر بها ، فهو جالس على مقعد ضيق أمام قاض شديد القسوة بارع الحيلة . وكان يقول لنفسه : « ولكن هذا تحقيق ! » .

وكانت ماريا نيقولاثينا لا تنقطع عن الابتسام ، كأنها تريد بذلك أن تبين أنها تمزح ، ولكن هذا لم يكن ليسرى عن سانين .

قالت أخيرا :

ـ طيب طيب ... لقد عرفت الآن ارضك كما اعرفك ... فما هو الثمن الذى تطلبه عن كل نفس !

كانت الاراضى فى ذلك الزمان تباع على أساس عدد الفنان المرتبطين بالارض .

فقال سانين فى غير قليل من الجهد :

ـ لا اقل من خمسمائة روبل للنفس فيما أقدر !

أين أنت يابانتاليون ؟ أين أنت يابانتاليون لتصرخ فى وجهه قائلا : هذه بربرية ، هذا توحش !

ورفعت ماريا نيقولاثينا عينيها الى السماء كأنها تحسب ثم قالت :

ـ طيب ... يخيل الى أن السعر معقول ... ولكننى سألتك أن تمهلنى يومين ... ويجب ان تنتظر حتى غد . أظن أننا سنتفق . وأترك لك أن تحدد انت نفسك القسط الاول . والآن يكفى هذا !

(لقد لاحظت ماريا نيقولاثينا ان سانين يهم أن يجيب) فلقد شغلنا بحديث المعدن الخبيث مدة كافية من الوقت . غدا نستأنف الكلام في الاعمال . هل تعلم ؟ انني أعتقك الآن ...

قالت ذلك ونظرت الى ساعة صغيرة مزينة بالاحجار الكريمة :

ـ ... حتى الساعة الثالثة . انك في حاجة الى قليل من الراحة . اذهب فالعب الروليت .

ـ لا العب اي نوع من العاب الحظ .

ـ صحيح ؟ انك اذن الكمال نفسه . على انني لا العب انا ايضا ... انها لحماقة أن يرمي المرء ماله في الريح ... أن يخسر حتما ... أدخل الى الصالة مع ذلك .. لا لشيء الا لترى وجوه اللاعبين . فان بينها وجوها مضحكة حقا ... هناك سيدة عجوز في اذنيها قرطان كبيران ، ولها شاربان ! منظرهما لذيذ ... وهناك أيضا أمير روسي ، جميل في نوعه ... وجه جليل وانف معقوف كمنقار نسر . كلما أوشك أن يخسر ليرة ، رسم اشارة الصليب تحت صداره ! ثم .. اقرأ الصحف ... تنزه ... افعل ما يحلو لك . ولكن لا تنس انني انتظرك في الساعة الثالثة ... انتظرك .. حتما .. سنتعشى معا ان هؤلاء الالمان السخفاء يبدأون التمثيل في الساعة السادسة والنصف ! ..

ومدت اليه يدها وهي تقول :

ـ ألنت حاقد علي ؟

ـ فيم أحقد يا ماريا نيقولاثينا ؟!

ـ لانني عذبتك ... ثم انني لم انته بعد ، وسترى ما ينتظرك !

قالت ذلك وطرفت عينيها ... وظهرت غمازاتها الصغيرة كلها في خديها .

ـ الى اللقاء !

حيا سانين مودعا وخرج من الصالون .

وانطلقت ضحكة صاخبة وراءه . ونظر في مرآة كانت أمامه فاذا هو يرى هذا المشهد : ماريا نيقولاثينا ضربت طربوش زوجها فوصل حتى الانف من وجهه . وبولوزوف يحرك ذراعيه يائسا ليخرج عينيه من تحت الطربوش .

ما أعمق زفرة الفرح التى انطلقت من صدر سانين حين وصل الى غرفته !

الحق أن ماريا نيقولاثينا قد صدقتْ حين قالت انه فى حاجة الى الراحة . لقد كان فى حاجة الى الراحة من العلاقات الجديدة ، من الاجتماعات ، من الاحاديث ، من كل هذه الفوضى التى نفذت الى راسه والى نفسه ، من هذا التقارب الذى لم يتوقعه ولا تمناه ، بينه وبين امراة يحس انها غريبة عنه . . .

تقارب يمتحن به غداة عرف أن جيما تحبه ، غداة أصبحت جيما خطيبته !

أليس فى هذا تدنيسا لحبه المقدس .

وراح سانين يستنفر الف مرة ، بينه وبين نفسه ، حبيبته الطاهرة ، يمامته البريئة ، رغم انه لم يفهم لماذا يحس انه آثم . وراح يقبل الصليب الصغير الذى اهدته اليه جيما ، يقبله مرة تلو مرة !

ولولا انه كان يأمل أن ينهى الصفقة التى جاء من أجلها الى فسبادن للاذ بالفرار سريعا ، ولحق بفرتكفورت العزيزة ، عائدا الى ذلك البيت الحبيب الذى أصبح يعده بيته ، مرتميا بين أقدام جيما .

ولكن لم يكن ثمة لدائه دواء . لابد أن يشرب الكأس حتى الثمالة ، يجب أن يرتدى ملابسه ، وأن يتعشى ، وأن يذهب الى المسرح . وكان يقول لنفسه : « شريطة أن تدعينى أسافر غدا » .

كان هنالك شيء يقلقه ويغضبه . . . صحيح انه يفكر فى جيما بحب وعاطفة ونشوة وشكر ، وصحيح انه يفكر فى الحياة التى سيعيشانها معا ، وفى السعادة التى تنتظرهما . . . ولكن ما بال هذه المرأة العجيبة ، هذه الاميرة بولوزوف ، تراود صورتها خياله بغير انقطاع ، ما باله يراها دائما أمام عينيه ؟ هكذا كان يسأل نفسه منزعجا ، ثم لا يستطيع أن يتحرر من رؤية طيفها وسماع صوتها ، لا يستطيع أن يطرد من ذهنه ذكرى كلماتها ، لا يستطيع أن يتخلص من رائحة العطر الناعم الطرى العبق ، كأنه شذى زنبقة صفراء ، الذى يفوح من ثيابها !

لا شك أن هذه المرأة تعبث به ، وتحاول أن تعبث به بألف اسلوب واسلوب .

فما الذي تبيته له ؟ وما الذي تريده منه ؟ ترى هل هذا كله مجرد نزوة ... نزوة امراة غنية مدللة ... لا تراود ضميرها وساوس ، ولا تشعر بنوع من انواع الحرج ؟

والزوج ؟ ما هذا الانسان العجيب ! ما عسى تكون علاقاته بامرأته اذن ؟

لماذا لا يظفر سانين فى أن يكبت هذه التساؤلات التى تتلاحق فى رأسه البائس سريعة سريعة ؟ الا يستطيع أن يصرف ذهنه الى غير هذه السيدة بولوزوف وهذا السيد بولوزوف ؟ لماذا يعجز عن طرد هذه الصورة التي تحاصر خياله ، حتى حين تتجه نفسه كلها نحو صورة أخرى مضيئة صافية كالنهار ؟

كيف يجرؤ وجه هذه المرأة ان يقف حاجزا بينه وبين الملامح الالهية من وجه حبيبته ؟ واكثر من ذلك ... انها تبتسم له بوقاحة ...

هاتان العينان الزرقاوان ، هذه الغمازات ، هذه الضفائر الملتوية المتعرجة ... هل صحيح انه أصبح أسيرا لها فما يقوى على التخلص منها ؟

لا ... لا ... هذا جنون ! غدا يزول كل شيء ، حتى دون أن يخلف أى اثر .

ولكن هل تدعه يسافر غدا ؟

نعم ...

كان سانين يطرح على نفسه هذه الاسئلة كلها ، وكانت الساعة التى يجب أن يذهب فيها الى ماريا نيقولاثينا تقترب .

ارتدى ملابسه ، وطاف فى الحديقة قليلا ، ثم مضي الى الاميرة .

فوجد معها فى الصالون سكرتير السفارة الروسية ، وهو رجل طويل ، شديد الشقرة ، له وجه كأنه وجه الحصان من جانب ، قد فرق شعر رأسه من خلف ، وتلك « موضة » حديثة أخذت تظهر فى ذلك الوقت . ومن هذا الاخر ؟ يا للمعجزة ! انه البارون فون دنهوف الذى تبارز معه سانين منذ ثلاثة أيام ! لم يكن سانين يتوقع أن يلقاه عند الاميرة ، فلما حياه اضطرب اضطرابا لم يستطع أن يدفعه .

ـ أانتما متعارفان ؟

سألت ماريا نيقولاثينا هذا السؤال ، دون أن يخفى عليها ارتباك سانين .

فأجاب دنهوف بقوله :

ـ نعم لقد شرفت بمعرفته قبل الآن .

ثم مال على الأميرة وأضاف يسألها بصوت خافت :
ــ هذا هو ... مواطنك الروسي .
فصاحت المراة الشابة متعجبة :
ــ صحيح ؟
ثم لوحت للضابط باصبعها مهددة ، ولم تلبث ان أخذت تودعه هو وسكرتير السفارة .
كان واضحا أن الدبلوماسي موله بحب ماريا نيقولاثينا ، حتى لقد كان يفغر فاه اعجابا كلما نظر اليها .
وانسحب دنهوف فورا ، بطواعية لطيفة ، كصديق من أصدقاء الاسرة يفهم مايطلب منه تلميحا . أما السكرتير فظهر عليه انه يريد أن يبقى ، فما كان من ماريا نيقولاثينا ان طردته دون احتفال ، قائلة له :
ــ اذهب الى صاحبة السمو ، ما وجودك عند امراة من الشعب مثلي ؟
كانت تعيش بفسبادن ،في ذلك الوقت ، اميرة من موناكو ، سيئة السيرة .
فقال السكرتير التعيس :
ــ ان جميع أميرات الدنيا يا سيدتي ...
ولكن ماريا نيقولاثينا لم تدع له ان يتم كلامه ، ولم ترحم مذلته وخضوعه ، واضطرته أن يخرج من عندها رغم الفرق الذي يزين شعره من وراء .
وكانت ماريا نيقولاثينا في « أبهى حلة » ، كما كانت تقول جداتنا رحمهن الله .
كانت ترتدي ثوبا وردي اللون ، لماعا ، ذا اكمام ضيقة . وقد زينت أذنيها بقرطين من الماس . وكانت عيناها تلتمعان مثلما كان يلتمع الماس في اذنيها . وكانت منطلقة المزاج جياشة الروح .
فلما قاموا الى المائدة جلست الى جانب سانين ، وحدثته عن باريز التي تنوي أن تسافر اليها بعد بضعة أيام ، وقالت له انها سئمت هؤلاء الالمان الذين يتصفون بثقل الظل حين يريدون ان يكونوا فكهين ، ويتصفون بالفكاهة في غير مناسبة حين يقولون أشياء سخيفة . ثم سالته فجاة :
ــ هل صحيح انك تبارزت مع الضابط الذي التقيت به هنا منذ لحظة ؟

فدهش سانين وقال :
- كيف عرفت ذلك ؟
- هوه ! .. لاشيء يخفى في النهاية يادميتري بافلوفتش وأنا أعلم أيضا أنك كنت على حق ، على حق تماما ... وانك تصرفت تصرف فارس شجاع ... قل لي هل كانت تلك السيدة خطيبتك !
فمطب سانين حاجبيه قليلا .
فاضافت ماريا نيقولاثينا تقول بحرارة :
- لاداعي الى الاجابة ... لاداعي الى الاجابة ... انني الاحظ ان ذلك يزعجك ! معذرة ... هبني ما قلت شيئا ... لا تغضب .
وفي هذه اللحظة دخل بولوزوف من الغرفة المجاورة ، وفي يده جريدة .
- ما الذي جاء بك ؟ هل هيئت المائدة ؟
- لم تهيأ بعد . هل تعرفين اي نبأ قرات فيجريدة «نحلةالشمال» ؟ لقد مات الامير جروموبوى .
رفعت ماريا نيقولاثينا راسها ، وقالت :
- رحمة الله عليه .
ثم التفتت الى سانين واضافت :
- كان الامير جروموبوى ، في شهر شباط (فبراير) من كل عام ، يزين بيتي بأزهار الكاميليا احتفالا بعيد ميلادي ... هذا لطيف منه ... ولكنه لا يستحق أن اقضي الشتاء ببطرسبرج من أجله .
ثم التفتت الى زوجها تسأله :
- ماذا كان عمره ؟ سبعون سنة ؟
- على الاقل ! .. ولكن ما أروع الجنازة ! البلاط كله خرج يشيع جنازته . وفي الجريدة قصيدة للأمير كوفرجكين نظمها في رثائه ..
- عظيم .
- هل تريدين ان اقرا لك القصيدة ؟
- لا أحرص على ذلك . هيا بنا الى العشاء . الحي يفكر في الحياة ! هات يدك ، يادميتري بافلوفتش .
كان العشاء حافلا كأمس ، وكان اكثر نشاطا وحرارة .
ان ماريا نيقولاثينا تجيد الحديث ، وتلك موهبة نادرة في المراة ، وخاصة في المراة الروسية . كانت لاتتخير تعابيرها ، ولا تترفق في الفاظها ، وكانت تتندر على مواطينها ... وقد ضحك سانين غير مرة ، لان كلماتها اللاذعة تضرب على وتر حساس وتصيب كبد الحقيقة .

وكانت ماريا نيقولاثينا تكره الادعيــاء والمتحــذلقين والكذابين ..
وما أكثرهم حولها !

لكأنها كانت تعتز بأنها ولدت فى بيئة وضيعة ·· وما أغرب النوادر التى روتها عن ذويها من أيام طفولتها ·

ولقد أدرك سانين أن ماريا نيقولاثينا قد نالت من العذاب فى حياتها ما لم تنله النساء فى سنها .

كان بولوزوف يأكل مفــكرا ، ويشرب منتبها .. وما كان يرفع رأسه نحو امرأته ونحو سانين الا من حين الى حين ، فتظهر عندئذ عيناه الصغيرتان المبيضتان اللتان يحسبهما الرائى عمياوين وهما فى حقيقة الامر تبصران أحســن ابصار ..

قالت « ماريا نيقولاثينا » لزوجها فجأة :

ــ أنت عظيم يا حبيبى ! ·· لقد أجدت شراء أشيائى من فرنكفورت أيما اجادة .. وددت لو أقبلك من جبينك ، لولا أنك لاتحب ذلك !

فأجابها وهو يقطع ثمرة أناناس بسكين من فضة :

ــ نعم ·· لا أحب ذلك ·

ــ ورهاننا ، أأنت مصر عليه ؟

ــ مصر

ــ ولكنك ستخسر ·

ــ أعتقد أنك أنت التى ستخسرين الرهان فى هذه المرة ، رغم كل ما تعمدين اليه وتعتمدين عليه

قال ذلك وهو يمد ذقنه الى أمام ·

فسأل سانين :

ــ رهان ؟ على ماذا ؟ أم أنه سر ؟

فقالت ماريا نيقولاثينا وهى تضحك :

ــ لا ·· ليس سرا ·· ولكننى لا أستطيع أن أذكر لك عنه شيئا الان ·· سأقول لك فيما بعد ·

دقت الساعة السابعة · فجاء خادم يعلن أن العربة فى الانتظار ·
فرافق بولوزوف وزجته حتى الباب ، ثم عاد يجلس على أريكته .

ــ لا تنس كتابة الرسالة الى الوكيل !

كذلك صاحت به من حجرة المدخل · فأجابها بقوله :

ــ لاتخافى .. سوف أكتب .. انى امرؤ لايخلف الميعاد !

في عام ١٨٤٠ كان مسرح فسبادن مبنى من ابشع المباني ، اما فرقته الفنية الدعية البائسة التي تجرى على وتيرة واحدة فكان مستواها لا يعلو على مستوى سائر المسارح الالمانية في ذلك العصر ، كمسرح كارلسروهه ، الذي كان يديره دفريانت « الشهير » والذي يمكن أن يعد نموذجا لهذا النوع من المسارح .

كان وراء « اللوج » الذي استأجرته « صاحبة السعادة السيدة فون بولوزوف » .. ولا يعلم الا الله بأية حيلة استطاع الخادم أن يستأجر هذا اللوج .. ولا شك أنه لم يخطر بباله أن يدفع لسعادة « مدير المدينه » بقشيشا لقاء تنازله عنه .. أقول كان وراء هذا « اللوج » صالون صغير صف فيه عدد من الارائك .

وقد طلبت ماريا نيقولاڤينا الى سانين ، قبل أن تدخل اللوج ، أن يسدل الستائر التي تفصل اللوج عن القاعة ، قائلة :

ـ احرص على الا يروني .. والا جاءوا يزعجونني واحدا بعد آخر .

وأجلست سانين الى جانبها ، جاعلة ظهرها الى القاعة ، حتى يبدو « اللوج » خاليا .

كانت الاركسترا تعزف افتتاحية « زواج فيجارو » .. ورفعت الستارة . كانت المسرحية في تلك الليلة واحدة من تلك التمثيليات الالمانية التي يحاول فيها الممثلون ، وهم على جانب كبير من الفضل والعلم وانما تعوزهم الموهبة ، أن يعبروا بلغة متخيرة جزلة ولكنها ميتة لا حياة فيها وفي نشاط كبير ولكنه أخرق ، عن فكرة « عميقة » أو « خطيرة » بواسطة « صراع تراجيدى » يبعث في النفس سأما .. آسيويا « قياسا على الكوليرا الاسيوية » .

وصبرت ماريا نيقولاڤينا فظلت تصغى الى منتصف الفصل الاول حتى اذا أخذ الفتى الاول وقد أيقن ان حبيبته خانته « كان الفتى الاول يرتدي سترة فضفاضة بنية اللون ذات ياقة من قطيفة ، وصدارا مخططا ذا ازرار من صفوف ، وقفازا أبيض من جلد الغزال » حتى اذا اخذ الفتى الاول يعوى كما يعوى كلب ، واضعا يديه على صدره ،

مباعدا ما بين قدميه ، لم تطق ماريا نيقولاثينا أن تحتمل أكثر مما احتملت ، فقالت في استياء :

– ان اضعف ممثل فرنسي في أصغر مدينة بالريف يمثل خيرا مما يمثل هذا النجم الالمانى الشهير •

ثم انتقلت الى الصالون ، وقالت لسانين وهي تشير بيدها الى المكان الذي الى جانبها :

– تعال الى هنا •• وسنتحدث ••

فأطاع سانين . فنظرت اليه ماريا نيقولاثينا وقالت :

– انك حقا مطيع • وستعيش زوجتك معك حياة سهلة • ان هذا الاحمق « أشارت الى الممثل الذى لا يزال يعوى » يذكرني بصباي « كان الممثل يمثل دور مرب فى أسرة » . لقد احببت أنا ايضا الرجل الذى كان يتولى تربيتى • كان ذلك غرامى الاول •• بل غرامي الثاني •• لان الشخص الاول الذي احببته كان راهبا من رهبان دير « دون » • كنت في الثانية عشرة من عمرى ، وكنت لا أراه الا يوم الاحد • كان يرتدى جبة من مخمل ، ويتعطر بماء الخزامى ، ويشق طريقه بين الحشد الحافل وهو يهز مبخرته قائلا للسيدات باللغة الفرنسية « معذرة •• عفوا •• » ، ولا يرفع بصره أبدا •

وكانت أهدابه طويلة هكذا •

قالت ماريا نيقولاثينا ذلك وهي تشير بظفر السبابة الى نصف خنصرها . وأردفت تتم حديثها :

– أما المربي فكان اسمه مسيو جاستون ! رجل غزير العلم شديد القسوة •• كان سويسريا • رأس قوى •• لحية سوداء كالقار •• وجه اغريقى •• شفتان كأنهما مقدودتان من برونز ! •• كنت أخافه •• انه الرجل الوحيد الذى خشيته منذ ولدت ! كان يتولى تربية أخي قبلي •• أخي الذى مات غرقا •• لقد تنبأت لى عرافة غجرية بموت عنيف •• ولكنني لا أصدق هذه النبوءات •• انها أمور صبيانية •• هل تتصور زوجي وقد أشهر خنجرا ؟

– الموت العنيف يمكن أن يتم بغير ذلك !

– كل هذا سخافات ! ترهات ! أتؤمن أنت بهذه الخرافات ؟ اما أنا فلا •• لابد مما ليس منه بد • كان مسيو جاستون يسكن اذن فى بيتنا • كان يحتل الغرفة التى تقع فوق غرفتي •• كنت كثيرا ما استيقظ فى الليل ، فأسمع وقع خطواته فوق رأسي • كان لا ينام الا فى ساعة متأخرة • فكان قلبى يفيض عندئذ تقديرا أو

اجلالا أو لا أدرى ماذا .. كان أبي لايكاد يعرف القراءة والكتابة .. ولكنه ثقفنا وأحسن تثقيفنا .. هل يخطر ببالك أنني أعرف اللاتينية قليلا ؟

– تعرفين اللاتينية ؟

– نعم . علمنيها مسيو جاستون . لقد ترجمت معه الالياذة .. انها مملة جدا ، ورغم أن فيها فقرات جميلة .. هل تتذكر مغامرة ديدون وأنياذ فى الغابة ؟

– أتذكر .. أتذكر

قال سانين ذلك بسرعة .

كان قد نسى اللاتينية منذ مدة طويلة ، ولم يبق فى ذهنه الا فكرة غامضة عن الالياذة .

فنظرت اليه ماريا نيقولائينا من جانب ودون أن ترفع عينيها ، على عادتها حين تنظر اليه . ثم قالت :

– لاتظنن من ذلك انني امرأة على جانب عظيم من العلم ... اللهم لا ... انني لست على شيء من العلم أبدا ، ولا املك اية موهبة خاصة . انني لا أكاد أجيد الكتابة ، ولا أحسن القراءة جهارا ، ولا أعزف على البيانو ، ولا أرسم ، ولا أخيط ... هذا أنا ، لا أكثر ولا أقل ...

قالت ذلك وباعدت ما بين يديها ...

ثم أردفت :

– وانما أحكي لك هذا كله أولا : حتى لانصغي الى هؤلاء الحمقى (أشارت الى المسرح ... وكان الفتى الاول قد كف عن العواء فأخذت تعوى فى مكانه الممثلة ، وقد مدت كوعيها الى أمام مثله) ، وثانيا : لانني وحيدة معك ... الم تقص على أمس قصة حياتك ؟

– انت سألتني عنها ؟

فلما سمعت ماريا نيقولائينا جوابه التفتت نحوه مسرعة وقالت :

– الا تحرص أن تعرف اذن أية امرأة أنا ؟ ... ولكن طبعا طبعا !! (عادت فاستندت من جديد الى وسائد الاريكة) هل فى وسع رجل مقبل على زواج حب بعد مبارزة ، أن يفكر فى شيء آخر ؟

وظلت ماريا نيقولائينا سارحة تفكر ، وأخذت تمضمض مقبض مروحتها بأسنان كبيرة لكنها متناسقة بيضاء كاللبن .

واحس سانين ، من جديد ، بذلك الضباب الذى اجتاح رأسه منذ يومين ولم يستطع أن يتخلص منه .

كان يثيره هذا الحديث بينه وبينها بصوت خافت ، وهذه التمتمة التي تناجيه بها ويناجيها انتهت الى ان احدثت فى نفسه غير قليل من الاضطراب .

تساءل بينه وبين نفسه : ترى متى ينتهى هذا كله .

أن الرجال الضعاف لايحسمون المسألة ابدا ، بل ينتظرون أن يزول الموقف الحرج من تلقاء نفسه .

وعطس أحد على المسرح .

كان الممثلون قد رتبوا هذا العطاس ، من قبيل « الاضحاك » ، وهو الشيء الوحيدالذى هيأوه للاضـــحاك من اول المسرحية الى آخرها . واستجاب لهم الجمهور شاكرا واخذ يضحك .

فكان من شأن هذا الضحك المقهقه المفاجىء أن فاقم الاهتيـاج الذى يحسه سانين

كان سانين فى بعض اللحظات لايدرى اهو ساخط أم راض ، اهو ضجر أم مسرور ؟

آه ... لو رآته جيما .

قالت ماريا نيقولاثينا فجأة :

ـ انه لشيء غريب حقا ... اذا أراد المرء ان يقول « سأتزوج » قالها بصوت هادىء ، ولكن أحدا لايخطر بباله أن يقول « سأقذف بنفسي الى الماء ! » بهدوء . وما الفرق مع ذلك بين الامرين ؟ حقا انه لشيء غريب !

شعر سانين بحزن يمازجه غضب وقال :

ـ الفرق كبير جدا ، ياماريا نيقولاثينا ... هناك اناس لا يبالون ان يقذفوا بانفسهم الى الماء لانهم يعرفون السباحة ! ... والحق أن الزواج الغريب هو الزواج الذى ...

قال سانين ذلك ثم صمت فجأة وهو يعض لسانه .

فضربت ماريا نيقولاثينا راحـة يدها بالمروحة ضربة خفيفـة ، وقالت :

ـ أكمل ياديمترى بافلوفتش ، اكمل ... انى لأسمعك تقول : « هلا تذكرت ياسيدتى ، ونحن نتحدث عن الزواج ، هلا تذكرت اننى لا أستطيع أن اتخيل زواجا أغرب من زواجك ... اننى اعرف زوجك ... أعرفه منذ الطفولة ... » هذا ما اردت أن تقوله ، انت يامن تعرف السباحة !

ـ اسمحى لى ...

ـ ألست على حق ؟ الا تعترف أنني ادركت ما اردت ان تقوله ؟ انظر الى وجهها لوجـــه .. هل تجـــرؤ أن تدعى أنني لم أحــزر ما بنفسك !

لم يعرف سانين ماذا يعمل بعينيه ! وقال أخيرا :

ـ طيب ... صحيح .

فهزت ماريا نيقولاثينا راسها ، واضافت :

ـ ها ... ولقد ساءلت نفسك ايضا ، انت الذى تعرف السباحة ، ترى ما الذى يحمل على مثل هذا الزواج امراة ليست بالفقيرة ولا بالغبية ... ولا بالدميمة كثيرا ! ... الا يهمك أن تعرف ؟ سيان ! ... سأشرح لك الامر مع ذلك ... لا الآن ... بل فى آخر الاستراحة فانني أخشى أن يباغتنا أحد ...

ما كادت ماريا نيقولاثينا تتم جملتها حتى شق باب « اللوج » ، واطل من شقه وجه احمر يغطيه عرق لزج ... وجه لايزال شابا ، يحيط به شعر طويل ناعم ، وله أنف مسطح ، وعلى جانبيه اذنان ضخمتان كأنهما جناحا خفاش ، وقد وضع نظارتين من ذهب على عينين صغيرتين باهتتين متفرستين . أطل هذا الوجه من شق الباب وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن أسنان هتماء ! ومال برقبته المعروقة محييا . فأشارت له ماريا نيقولاثينا بمنديلها قائلة :

ـ لست هنا ...

فظهرت على الرجل الدهشة ، وابتسم ابتسامة مقسورة ، وقال كأنما هو ينتحب ، تقليدا للموسيقى .. لست الذى كان فيما مضى يلحس قدميه :

ـ طيب ... طيب

واختفى .

قال سانين :

ـ ماهذا الشبح المفزع ؟

ـ هذا ناقد فسبادن . « ان شئت فهو أديب ، وان شئت استأجرته تابعا ... ان مدير المسرح يدفع له أجرا ، فيثنى على كل مايمثل على هذا المسرح ، ويقول انه رائع ساحر ... رغم أن نفسه تفيض مرارة وحقدا ... ولكنه لايجرؤ أن يظهر ما فى نفسه . وهو لايؤثر على الغيبة شيئا ... وأخشى ما أخشاه أن يمضى مناديا فى المسرح كله أننى هنا ... على كل حال ... ليفعل مايحلو له ... لا يهمنى ...

واخذت الاركسترا تضرب معزوفة فالس ، ورفعت الستار مرة اخرى .

واستؤنف التكشير والعواء على المسرح مثلما كانا بل اشد .

قالت ماريا نيقولاثينا وهى تسترخى وتتهالك على أريكتها :

ـ طيب ... مادمت أسيرا ... مادمت مضطرا الى مصاحبتى بدلا من الذهاب الى خطيبتك لتتأملها وتعجب بجمالها ... لا ... لا ... لاتحملق ... لاتزعل .. انني افهمك .. وقد وعدتك بأن ادعك تمضى اليها متى أردت ... وانما اريد الآن أن أفضى اليك باعترافات ... هل يهمك ان تعرف ما الذى أحبه أكثر ما أحبه ؟

قال سانين :

ـ الحرية

فوضعت ماريا نيقولاثينا يدها على يد الفتى ، وقالت جادة ، بصوت تختلج فيه نبرة الصدق :

ـ نعم ياديمترى بافلوفتش ... الحرية ... الحرية قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ! ولا يذهبن بك الظن الى اننى افاخر بهذا ! لا ، فليس فى هذا مايفاخر به ... ولكن الحقيقة هى اننى كذلك ، واننى ساظل كذلك الى ان أموت . يجب ان تصدق أننى عانيت فى طفولتى كثيرا من عذاب العبودية . وقد أسهم مسيو جاستون الذى تولى تربيتى ، فى تفتيح عينى ! هل تفهم الان لماذا تزوجت بولوزوف ؟ لقد تزوجته لاننى أستطيع معه ان أكون حرة ، حرة كالهواء ، حرة كالريح ! كنت اعرف قبل أن اتزوجه اننى سأكون ، مع زوج مثله ، قوقازية حرة ...

وصمتت ماريا نيقولاثينا ، ورمت مروحتها جانبا .

ـ كلمة اخرى أيضا : اننى لا أكره التفكير ... فانما وهب الانسان عقلا ليفكر ... ولكننى لا أفكر أبدا فى النتائج التى يمكن أن تنجم عن أعمالى . اننى انساق حين يجب الانسياق ، فلا أهتم ولا أقلق ... شعارى : « ليكن مايكون » . وفى هذه الحياة الدنيا ، لا حساب ... أما فى الحياة الاخرى ، أما فى السماء (قالت ذلك ورفعت اصبعها نحو السقف) ... هه ... فليصنعوا بى مايشاءون ! حين يحكمون على فى الحياة الاخرى ، فلن اكون انا نفسى ! ... هل تسمع ما أقول ؟ أو ترانى اضجرك كثيرا ؟

ـ أبدا ... اننى اصغى اليك بكثير من الاهتمام ... ولكن لماذا تقولين لى هذا الكلام كله ؟

فاقتربت ماريا نيقولائينا منه وقالت :
ــ ياله من سؤال ! أجاهل أم متجاهل ؟
فرفع سانين رأسه . واضافت هي تقول بصوت هادىء ، ولكنه صوت لايتفق والمعنى الذى يلوح فى وجهها :
ــ انما أقول لك هذا كله ، لانك تعجبنى ... نعم ، لاتتظاهر بالدهشة ... ولست أمزح ... انه ليشق علي أن اترك فى نفسك ، بعد لقائنا ، رأيا سيئا أو خاطئا ... ومن أجل هذا انما قدتك الى هنا ... وخلوت بك ، وحدثتك بصدق ... نعم اننى لا اكذب . لاحظ أننى أعرف أنك تحب امرأة اخرى ، وانك على اهبة الزواج ... ومعني هذا اننى لا اطمع منك فى شيء ... ومع ذلك ... كانت تلك فرصة لاقول لك « ليكن مايكون » .
قالت ماريا نيقولائينا ذلك ثم ضحكت ، ولكنها سرعان ما انقطعت عن الضحك فجأة ، وسكنت لاتتحرك ، كأن كلماتها ادهشتها هي نفسها . وفى عينيها اللتين يشيع فيهما المرح وتلتمع فيهما الجراة ، عادة ، طاف شيء يشبه أن يكون حياء ، ويشبه أن يكون حزنا .
قال سانين فى نفسه « أفعى ! آه منك أيتها الافعى الجميلة ! »
وفجأة أمرته أن يناولها المنظار قائلة :
ــ اعطني المنظار ! اريد أن أرى ما على المسرح ... هل يعقل أن تكون الفتاة الاولى دميمة كل هذه الدمامة التى أراها من هنا ؟ لكأن الحاكم قد اختارها عمدا لغاية اخلاقية : هى الا تثير الشباب !
مد اليها سانين المنظار ، فتناولته ثم تلمست بأصابعها يديه فى حرارة . قالت :
ــ لا تعبس ... اننى لا احب أن يقيدنى أحد ، ولكننى لا احب أيضا أن أقيد أحدا . أحب الحرية . ولا أريد لغيرى الا ما اريده لنفسي ... والآن ابتعد قليلا ، ولنصغ الى المسرحية .
راحت ماريا نيقولائينا تشاهد المسرح من خلال المنظار ، واقتدى بها سانين .
كان سانين ، وهو جالس الى جانبها فى عتمة «اللوج» ، يستنشق على غير ارادة منه حرارة الجسد المعطر النضير ... وعلى غير ارادة منه أيضا كان يفكر فى كل ما أفضت به اليه خلال هذه السهرة ، وخلال الدقائق الاخيرة خاصة .

دامت المسرحية ساعة أخرى ، الا أن ماريا نيقولاثينا وسانين قد نالهما الضجر بعد لحظة ، فعادا يتحدثان ، وجرى حديثهما بتلك اللهجة نفسها ، غير ان سانين اصبح في هذه المرة اقل تحفظا واكثر انطلاقا .

كان مستاء من نفسه ومن ماريا نيقولاثينا ، فحاول أن يبرهن لها على أن « نظرياتها » خطأ ، كان ماريا نيقولاثينا تعنيها « النظريات » في كثير أو قليل ...

وقد سرها أن يدحض سانين حججها وادلتها ، قائلة لنفسها : « مادام يناقش ، فمعنى هذا أنه استسلم أو انه سيستسلم ، فأول الخضوع معارضة ... والسمكة متى عضت الصنارة فقد وقعت ! »

فكانت ماريا نيقولاثينا تبتسم له ، ثم توافقه على رايه ، ثم تفكر ، ثم تستانف الهجوم ... وكان وجهاهما اثناء ذلك يتقاربان ، وأصبحت عينا الفتى لاتتحولان عن عيني المراة الشابة اللتين تتفرسان فيه وتطوف نظراتهما على ملامحه وقسمات وجهه . وكان سانين يجيب عن ذلك بابتسام .. ان كان ابتسام لباقة ، ولطف ، فهو ابتسام على كل حال ...

وقد اسعدها كثيرا أن يسترسل سانين في أفكار عامة مجردة عن الشرف والواجب والوفاء وقداسة الحب والزواج ... فمن الامور المعروفة أن مثل هذه الاراء المجردة بداية طيبة ، طيبة جدا ... بل انها خير بداية ..

ويؤكد العارفون بماريا نيقولاثينا انها لا تصبح خطيرة رهيبة مثلما تصبح كذلك حين تبدو عليها مخايل التواضع والنعومة والخجل والخفر (ولا يدرى الا الله من اين تنسب هذه الفضائل عندئذ على طبيعتها القوية المسترجلة) ، وهذا ماوقع فعلا .

ولو أتيح لسانين أن يعود الى نفسه لحظة ، لاحتقر نفسه ، ولكن وقته لم يتسع لذلك ، فلم يستطع أن يفكر .

ان ماريا نيقولاثينا لاتضيع وقتها .

وكل ذلك لان سانين قد أعجبها !

لقد كان بعضهم على حق اذن حين تساءل : هل جمال الجسم نعمة ام هو نقمة ؟

وانتهت المسرحية اخيرا . فطلبت ماريا نيقولاثينا الى سانين ، فى رجاء ، أن يضع لها شالها على كتفيها ، ووقفت ساكنة بينما راح سانين يلف بالحرير الرخص هاتين الكتفين الفاتنتين حقا .

ثم أمسكت بذراع الفتى ، ومضت ، وماهى الا أن خرجت من باب « اللوج » ، حتى أنطلق منها مايشبه ان يكون صرخة : كان دنهوف واقفا عند مدخل « اللوج » كأنه شبح ، ومن ورائه تطل قامة الناقد الادبى التعيس الذى يلمع وجهه دهنا ويشرق فرحا خبيثا !

قال الضابط وهو يرتجف من غضب لم يستطع أن يخفيه فى صوته :

ـ هل تسمحين لى يا سيدتى بأن أنادى عربتك ؟

فأجابت :

ـ لا ... شكرا ... أن تابعى يتولى ذلك

وأضافت تقول بصوت حاسم ، وهى تبتعد بسرعة مع سانين :

ـ ابق هنا .

ـ اذهب الى الشيطان ... اتظل ورائى لاتفارقنى ؟

قال دنهوف ذلك بصوت غاضب يخاطب الناقد !

لقد كان دنهوف فى حاجة الى ان يصب غضبه على أحد ما .

فدمدم الناقد يقول وهو يمضى :

ـ حاضر ... حاضر ...

كان خادم ماريا نيقولاثينا ينتظرها فى مدخل المسرح ، فما هى الا لحظة حتى تقدمت عربتها ، فوثبت اليها بسرعة ، ووثب بعدها سانين ، وما أن اغلق باب العربة ، حتى انفجرت ماريا نيقولاثينا فى ضحكة قوية ! سألها سانين :

ـ مم تضحكين ؟

ـ أوه ... عفوك ... لاتؤاخذنى ... لقد خطر ببالى أن دنهوف قد يطلبك الى المبارزة مرة أخرى ! أليس هذا مضحكا ؟

ـ هل بينك وبينه علاقة حميمة ؟

ـ بينى وبين هذا الصبى ؟ هه ... اننى استخدمه فى شراء بعض حاجاتى ! ... لاتقلق ... لاتقلق

ـ وفيم القلق ؟ ان أمره لايهمنى أبدا !

تنهدت ماريا نيقولاثينا ... ثم قالت :

ـ آه ... طبعا ... اعرف هذا حق المعرفة ! اسمع ، مع ذلك يادیمتری بافلوفتش ، لقد كنت لطيفا حتى الآن غاية اللطف فلا تخيب رجائي الاخير ! سأسافر أنا الى باريز بعد ثلاثة أيام ، فهل توافق أن تبقى معى حتى ذلك الحين ، ثم تعود الي فرنكفورت ؟ ... لايعلم الا الله متى نلتقى بعد الان !

ـ ما فائدة بقائي ؟

ـ هل تجيد ركوب الخيل ؟

ـ نعم .

ـ عظيم ... نقوم غدا بنزهة على الخيل ، خارج المدينة ، هى خيل من أجود الخيول ! حتى اذا عدنا انهينا القضية التى جئت من اجلها ، وفرغنا ... لاتقل ان هذه نزوة وانني مجنونة ! قد أكون مجنونة ! ولكن قل لى انك تقبل !

قالت ماريا نيقولاثينا هذا ، وأدارت رأسها نحو سانين . كانت العربة مظلمة ، ولكن التماع عينى ماريا نيقولاثينا كان يرى فى الظلام

قال سانين وهو يتنهد :

ـ اقبل

فهتفت ماريا وهى تقلد تنهد سانين :

ـ أراك تتنهد ... اسمع : لقد صبت الخمر فلابد من شربها . ولكنك رجل لطيف ... فتى شهم . وسابر بوعدى . هاك يدى ، أمدها اليك بلا قفاز ، يدى اليمنى التى أوقع بها الاتفاقات ... اشدد عليها ، واطمئن اليها ... لست أدرى أى نوع من النساء انا ، ولكننى أعرف أننى فى شئون الاعمال صادقة مستقيمة يمكن التعامل معى .

تناول سانين يدها ، وبدون أن يعرف ماذا يعمل ، رفعها الى شفتيه .

فسحبت ماريا نيقولاثينا يدها ببطء ، وصمتت ، وظلت صامتة الى أن وقفت العربة أمام الفندق

وكانت تهم ان تنزل ... حين أحس سانين على خده بملامسة سريعة محرقة . ترى هل كان ذلك حلما ؟

ـ الى الغد

بهذا دمدمت ماريا نيقولاثينا ، حين صارت على السلم الذى تضيئه شمعات الشمعدان الاربع الذى حمله البواب المزدان بالقصب المذهب ، منذ لمحها .

قالت : « الى الغد » وهى خافضة عينيها .

ولما وصل سانين الى غرفته وجد على منضدته رسالة من جيما ... فما أن رأى الرسالة حتى أحس برعشة فى جسمه ، ولكنه سرعان ما ابتسم ليخفى عن نفسه ما أحس به .

كانت رسالة جيما لاتضم الا بضعة أسطر .

لقد أسعدها أن تعلم أن « الصفقة بدأت هذه البداية الطيبة » ، وهى تحض سانين على الصبر ، وتؤكد له أن الامور كلها ستجرى على خير حال ، وتعبر عن فرحها بعودته منذ الان .

وجد سانين الرسالة جافة بعض الجفاف ، ورغم ذلك تناول ورقة وقلما ... لم يلبث أن رماهما جانبا ، وهو يقول لنفسه :

ـ فيم أكتب مادمت عائدا فى الغد ؟ ... لقد آن أن أعود ...

ولم يلبث أن استلقى فى فراشه وحاول أن ينام بسرعة .

لو أن سانين بقى ساهرا دون أن يستلقى فى فراشه ، لكان يمكن أن يفكر فى جيما ... ولكنه يستحى هنا أن يفكر فيها ... كان ضميره مضطربا . فكان يهدئه قائلا بينه وبين نفسه : أن كل شيء سينتهى غدا ، وأنه سيتخلص من هذه المجنونة الى الابد ، وأنه سينسى جميع نزواتها .

أن الرجال الضعاف يستعملون الكلمات القوية العنيفة حين يتحدثون الى أنفسهم .

« ثم أن الامر لن تكون له نتائج خطيرة ! »

— ٤١ —

تلك كانت الخواطر التى دارت فى راس سانين وهو مستلق فى فراشه . ولكن ما من أحد يعرف ما الذى فكر فيه سانين فى صباح غد ، حين نقرت ماريانيقولاثينا باب غرفته بقبضة سوطها المرجانية ، ثم أطلت عليه عند العتبة وهى تمسك بيدها طرف ثوبها الازرق القاتم الذى ترتديه الفارسات ، وقد وضعت على ضفائر شعرها الغزيرة قبعة من قبعات الرجال ، وعلى كتفيها وشاحا شفافا يتموج ، واشرقت فى شفتيها ، وفى عينيها ، وفى وجهها كله ابتسامة مثيرة !

صاحت به ماريا نيقولاثينا فى مرح :

— هل تأهبت ؟

فاسرع سانين يقيد أزرار سترته ، وتناول قبعته دون أن يقول كلمة واحدة .

وألقت عليه ماريا نيقولاثينا نظرة فرحة ، وغمزته براسها غمزة خفيفة ، وهرولت تهبط السلم راكضة .

وهرول وراءها مسرعا .

ثلاثة أحصنة كانت تنتظر فى الشارع أمام درج الفندق : فرس اصيل صغيرة شقراء ، لها منخران جافان ، وأسنان مكشوفة ، وعينان سوداوان جاحظتان ، وساقان كأنهما ساقا وعل ، فهما ضامرتان ... ولكن الفرس رشيقة حارة كالنار . انها لماريا نيقولاثينا ... وحصان قوى الشكيمة ، عريض المنكبين ، ثقيل بعض الثقل ، ليس فى جسمه بقعة . وهو لسانين . ودابة اخرى للسائس .

وامتطت ماريا نيقولاثينا صهوة فرسها فى خفة ، فأخذت الفرس تضرب الارض بحافريها ، وتدور ، وترفع ذيلها ، وتحرك ردفيها ، ولكن ماريا نيقولاثينا فارسة ممتازة ، فاستطاعت أن تكبح جماح الفرس وأن تبقيها فى مكانها .

وكان لابد من وداع بولوزوف الذى خرج الى الشرفة بطربوشه وراح يلوح بمنديله الحريرى ، عابس الوجه لا يبتسم !

وامتطى سانين ظهر جواده . وهزت ماريا نيقولاثينا قبضة سوطها بحركة خفيفة ، تحية لبولوزوف ، ثم ضربت الفرس ضربة يسيره على عنقها المسطحه المائله ، فشبت الفرس ثم مضت مهرورة رشيقة مرتعشة الجلد تعض اللجام وتنفث الهواء وتنخر غاضبة .

وتبع سانين الفارسة . وراح يتأمل قوامها الدقيق المرن الذى يهتز على صهوة الجواد منتصبا ثابتا .

والتفتت نحو سانين واشارت اليه برأسها ، فاقترب منها ، وسارا متحاذيين .

صاحت ماريا نيقولاثينا :

ــ ما اجمل هذا الجو ! اقول لك مرة أخيرة قبل ان نفترق : انك انسان رائع ، ولن تندم على أنك صحبتنى فى هذه النزهة .

وكانت تقول هذا الكلام وتشفعه بحركات من رأسها ، كأنما لتعززه ولتجعله أقوى نفاذا الى قلب صاحبها .

وقد بلغ وجهها من شدة التعبير عن السعادة ان سانين دهش من ذلك : انه وجه طفلة ، طفلة عاقلة ، عاقلة جدا .

ظل الجوادان يسيران متقاربين بخطا وئيدة ، الى ان بلغا الحاجز ، فاخذا بعد ذلك يخبان .

كان الجو جميلا ، وكانت السماء سماء صيف حقا ، وكانت الريح تلقى الفارسين مدمدمة ، وتصفر فى الاذان صفيرا ممتعا .

شعر الفارسان براحة وسعادة : ان حياة فتية عارمة تتدفق فيهما وهما يعدوان هذا العدو الطلق القوي . واخذت نشوتهما تزداد دقيقة بعد أخرى .

وشدت ماريا نيقولاثينا لجام فرسها ، وعادت تسير بخطا وئيدة . ففعل سانين مثلما فعلت .

هتفت الفارسة وهى تتنهد تنهدا عميقا سعيدا :

ــ هكذا تستحق الحياة أن تحيا . ما أروع أن يحقق المرء ما كان يظنه مستحيلا !

قالت ذلك ومرت بيدها على عنقها واضافت :

ــ وأن المرء ليصبح عندئذ أطيب نفسا ! اننى لأشعر بأننى طيبة جدا فى هذه اللحظة ... وان فى وسعى أن أقبل العالم بأسره ... لا ، لا العالم بأسره ... فهذا شخص ما أظن أننى أستطيع تقبيله .

قالت ذلك وأشارت بطرف سوطها الى رجل عجوز ، يرتدى أسمالا رثة ، ويسير على حافة الطريق .

ـ ولكنني اريد ان يكون سعيدا هو أيضا ... هيه ايها الشيخ ، خذ هذا لك !

ورمت بشبكة نقودها بين قدمي العجوز . وكانت محفظة النقود غير معروفة في ذلك العهد . وسقطت الشبكة الصغيرة ثقيلة على الطريق ، فأحدث سقوطها ضجة جافة .

فدهش العجوز المسكين ، وتوقف .

وانفجرت ماريا نيقولاثينا ضاحكة ، وهمزت فرسها ، فأخذت الفرس تعدو عدوا سريعا .

ـ أأنت مرحة دائما كلما ركبت خيلا ؟

فشدت ماريا نيقولاثينا زمام فرسها ، وتوقفت عن السير . انها لاتقف فرسها أبدا بغير هذه الطريقة . وقالت :

ـ انما أردت أن أفلت من الشكر ... ان الشكر يفسد كل شيء . وأنا لم اقذف اليه بالمال من اجله بل من اجلي ... لم اقذف اليه بالمال لاسره بل لاسر نفسي ... فعلام يشكرني ؟ ماذا سألتني ؟ لم أسمع ...

ـ أردت ان اعرف لماذا أنت مرحة اليوم هذا المرح كله ؟

ترى ألم تسمع ماريا نيقولاثينا السؤال ؟ أم انها لم تشأ أن تجيب عنه ؟ المهم انها قالت :

ـ هل تعرف ... ان هذا السائس الذي يتبعنا يضايقني ؟ فكيف السبيل الى التخلص منه ؟

قالت ذلك وسحبت من جيبها دفترا صغيرا وأضافت :

ـ سأعطيه رسالة يمضي بها الى المدينة ... لا ... ها ... وجدت الوسيلة ... أليس حانة ، هذا المكان الذي أمامنا ؟ .

نظر سانين الى المكان الذي أشارت اليه فقال :

ـ يخيل الي أنه حانة .

ـ عظيم ... سأقول له أن يبقى هناك ، وأن يشرب البيرة الى ان نعود .

ـ ولكن ماعسى أن ينصرف الى ذهنه ؟

ـ لاشيء ... سيشرب البيرة وكفى ! هيا ياسانين !

هذه أول مرة تخاطبه فيها ماريا نيقولاثينا باسم «سانين» فحسب ... خاطبته بهذا الاسم أثناء الطريق والخيل تعدو ...

فلما وصل الفارسان الى الحانة ، نادت ماريا نيقولاثينا التابع واصدرت اليه أوامرها . فما ان سمع التابع أوامرها ، وهو رجل

انجليزى الاصل حاد المزاج ، حتى رفع يده الى افريز قبعته دون ان ينطق بكلمة ، ثم وثب عن حصانه ، وجره من لجامه .

صاحت ماريا نيقولاثينا :

ـ نحن الان طائران حران ! فالى اين نذهب ؟ الى الشمال ؟ الى الجنوب ؟ الى الغرب ؟ الى الشرق ؟ أنظر : اننى كملك المجر حين تتويجه (اشارت بطرف سوطها الى النقاط الاساسية الاربع) . الكون كله لنا . هل ترى هذه الروابى ؟ هذه الغابات ! هناك على الجبال ، على الجبال ... على الجبال الحرية ، على الجبال الحرية ... هناك فى الاعالى !

وانحرفت ماريا نيقولاثينا عن الطريق ، ودخلت بفرسها مسرعة فى درب ضيق لايكاد يكون مشقوقا ، ويبدو أنه يؤدى الى الجبل حقا واندفع سانين فى اثرها .

لم يلبث الدرب الضيق أن أصبح ممرا لايكاد يرى ، ثم زال تماما وراء حفرة من الحفر .

وكان من رأى سانين ان يرجعا أدراجهما . ولكن ماريا نيقولائينا صاحت تقول :

— بل نمضى الى أعلى الجبل ! نمضى الى أعلى الجبل قدما فى خلال الحقول كما تطير الطيور !

ولكزت حصانها فوثب فوق الحفرة . وكذلك فعل سانين .

كان يمتد فى الجانب الآخر مرعى من المراعى ، جاف فى أوله ، رطب مستنقع بعد ذلك ، فالمياه هناك تنبجس من كل مكان ، وتكون فى بعض المواضع غدرانا .

فتعمدت ماريا نيقولائينا أن تمضي بفرسها الى وسط الغدران واخذت هنالك تضحك وهى تصيح :

— ها نحن كالتلاميذ الهاربين من المدرسة ! هل مارست الصيد فى فترة مياه الربيع ؟

— طبعا .

— كان لى عم يحب الصيد حبا جما . وكنت أصحبه كثيرا ... فى الربيع . ماكان أروع ذلك ! وها نحن اليوم نبتل بمياه الربيع! انى لارى أنك روسى حقا ! ومع ذلك تريد أن تتزوج ايطالية ! على كل حال ، هذا شأنك ! انتبه ! هذه حفرة أخرى ! هوب ، هـوب هوب !

ووثبت الفرس فوق الحفرة ، فطارت قبعـة ماريا نيقولائينا ، وانحلت ضفائر شعرها ، فانزلقت على ظهرها .

فأراد سانين أن يثب عن حصانه ، ولكن الفارسة أمسكت به ، قائلة :

— بل أجىء بها أنا .

قالت ذلك ، ثم مالت ميلا شديداً الى تحت ، دون أن تترك سرج الفرس ، ومدت قبضة سوطها فعلقت به طرف القبعـة ، ثم حملتها

ووضعتها على رأسها دون أن ترفع شعرها ، واستأنفت العدو وهي تصيح : هيب ، هيب !

كان سانين يعدو على حصانه الى جانب ماريا نيقولاثينا ، ويثب معها فوق الحفر والسواقي ، ويصعد ويهبط ، ويجتاز الجبل ، وينزل المنحدر ، دون أن تفارق نظراته رفيقته .

ما أروع هذا التألق ! ان وجهها كله يشرق ويزهر . العينان تتسعان شرهتين صافيتين متوحشتين ! والشفتان تنفرجان ، والمنخران ينبضان ويتنشقان الهواء في نهم . وكانت ماريا نيقولاثينا تنظر قدما الى امام تعانق بنظرتها الافق كله ، حتى كأن روحها تلتهم كل ماكانت تراه : تمتلك الارض والسماء والشمس وحتى الهواء . وما كان يؤسفها الا شيء واحد : لماذا لاتصادف الا عقبات قليلة ؟ .. انها تود لو تنتصر انتصارات أخرى ، انتصارات أخرى .

صاحت تقول :

ـ سانين ! ان هذا ليشبه مافي « لينور » بورجر كل الشبه ! ولكنك لست ميتا ، اليس كذلك ؟ اما انا فاحس بأنني أحيا احيا ! .

لم تكن ماريا نيقولاثينا في هذه اللحظات فارسة تعدو على صهوة جوادها ، بل أصبحت أشبه بجنية من جنيات الاساطير نصفهاحيوان ونصفها اله ، تشق بفرسها الارض المطواعة وقد افتتنت بها الارض وسحرت .

واخيرا وقفت ماريا نيقولاثينا فرسها التى بللها العرق وغشيها الطين .

كانت الفرس تترنح تحتها ، وكان حصان سانين القوى الثقيل يلهث اعياء .

قالت ماريا نيقولاثينا في دمدمة نشوى :

ـ جميل هذا ، اليس جميلا ؟

فقال سانين في حماسة :

ـ رائع !

كان دم سانين يغلي أيضا .

ـ انتظر ! لم ينته كل شيء !

قالت ذلك ومدت اليه يدها . كان قفازها قد تمزق . واردفت :

ـ قلت لك انني سأمضي بك الى الغابة ، هناك في الاعالي ، في الاعالي ... في الجبل ! » .

كان الجبل ينتصب هناك قرنا شامخا على مسافة مائتي متر من الفارسين المتوحشين .

— أنظر ... هذا هو الطريق ... فلنسترح قليلا .. ثم فلنمض الى هناك ... ولكننا سنسير بخطا وئيدة ! يجب ان ندع للخيل ان تتنفس .

وسارا .

وبحركة من يديها ردت ضفائر شعرها الى خلف . ونظرت فى قفازيها فخلعتهما وهى تقول :

لقد تشبعت يداى برائحة الجلد ... لابأس ...

وكانت تبتسم ، وكان سانين يبتسم أيضا .

وسألته فجأة :

— كم عمرك ؟

— اثنتان وعشرون سنة !

— صحيح ؟ غريب ... أنا أيضا عمرى اثنتان وعشرون سنة ! ما أجملها من سن ! لو أضفت عمر كل منا الى عمر الآخر لظللنا بعيدين عن الشيخوخة ! الجو حار ! احمر وجهى ، أليس كذلك ؟

— بلون أزهار شقائق النعمان !

ومسحت وجهها بمنديلها .

— سيبترد الجو متى أصبحنا فى ظل الغابة ! انها غابة قديمة ... وهى عندى صديق قديم ... هل لك أصدقاء ؟

— عدد قليل ... أصدقاء حقا ؟ لا ...

— أما أنا فلى أصدقاء حقا ... هذه الفرس مثلا ... انها تحملنى على ظهرها حملا رفيقا ! ما أعظم ما أشعر بالراحة هنا ... أيمكن أن أسافر الى باريز بعد غد ؟

— هل صحيح أنك ستسافرين ؟

— طبعا ، وستسافر أنت الى فرنكفورت ، أليس كذلك ؟

— نعم ، سأعود الى فرنكفورت .

— امض الى فرنكفورت .. انى لابارك سفرك الى فرنكفورت .. أما هذا اليوم فهو يومنا نحن ، نحن وحدنا !

كانت الخيل قد بلغت الغابة ودخلت فيها . وكان الظل الطرى اللذيذ يلف الفارسين من كل جانب . فصاحت ماريا نيقولاثينا :

— ان المرء هنا لفى جنة . فلنوغل ... فلنوغل ... فى هذا الظل ... يا سانين !

الخيل تسير في أعماق الغابة الهوينى !
وانحرف الممر فجأة ، وصار الى فج ضيق . وكانت رائحة الخلنج، والخنشار ، والراتينج ، والدبال تصعد من الارض وكانت صدوع الصخور السمراء تنشر طراوة تنفذ في الاجسام . وعلى جانبي الطريق تقوم آكام مغطاة بطحالب خضراء .
صرخت ماريا نيقولاثينا قائلة :
ـ فلنقف ، أريد أن أستريح على هذا المخمل . ساعدني على النزول عن الحصان .
فنزل سانين ، وسرع نحوها . فاستندت الى كتفيه ، ووثبت بسرعة الى الارض ، وجلست على ربوة يغطيها الطحلب .
ووقف سانين أمامها ممسكا لجام الحصانين .
رفعت ماريا نيقولاثينا عينيها نحوه .
ـ سانين ، هل تعرف أن تنسى ؟
قالت له ذلك ، فتذكر ما جرى أمس في العربة ، فسألها :
ـ أهذا سؤال أم لوم ؟
ـ ما لمت في حياتي أحدا ؟ هل تؤمن بالسحر ؟
ـ ماذا تعنين ؟
ـ أعني هل تؤمن بأن الانسان يستطيع أن يسحر أحدا بالرقى كما تحفل بذكر ذلك الاغاني التي يغنيها الفلاحون في بلادنا ؟
ـ ها ... فهمت !
ـ أما أنا فاؤمن بذلك ... وأنت ؟
ـ السحر ... الرقى ... كل شيء ممكن في هذا العالم ... كنت في الماضي لا أومن بشيء من ذلك ، أما الان فاصبحت أومن ... انني الآن لا أعرف نفسي ...
فكرت ماريا نيقولاثينا لحظة ، ثم نظرت فيما حولها .
ـ يخيل الى أنني اعرف هذا المكان ... سانين ... أنظر هل هناك صليب احمر على جذع تلك السنديانة الكبيرة ؟ .. أهو هناك ؟
اقترب سانين من الشجرة . ثم قال :
ـ نعم ، هنا صليب .
فابتسمت ماريا نيقولاثينا :
ـ الآن عرفت أين نحن ! اننا لم نبتعد عن طريقنا ... من هذا الذي يطرق هناك ؟ أهو حطاب ؟
نظر سانين الى الجهة التي يأتي منها الصوت . وقال :

ـ نعم ، هو رجل يقطع الاغصان الميتة ٠

ـ أريد أن أعيد تضفير غدائرى ٠ ترى ما عسى ان يقول شخص يرانى ! ٠٠٠

قالت ذلك ثم نزعت قبعتها ، وأخذت تصفف غدآئرها الطويلة فى جد ووقار دون أن تقول كلمة واحدة ٠

وظل سانين واقفا أمامها ٠

كانت الاشكال الجميلة من جسد هذه المرأة الشابة تبرز واضحة تحت ثنايا الجوخ القاتمة التى علقت بها شذرات من الطحلب هنا وهناك ٠

وفجأة جفل أحد الحصانين وراء سانين ، فارتعش سانين ٠ كان كل شىء مضطربا أمام عينيه ، وكانت اعصابه متوترة كأنها أوتار مشدودة ٠

لقد صدق حين قال انه أصبح لا يعرف نفسه ٠ انه الآن مسحور ٠ كانت تستبد بكيانه كله فكرة واحدة ، رغبة واحدة .

ألقت عليه ماريا نيقولاثينا نظرة حادة ٠

ثم قالت وهى تضع قبعتها على راسها :

ـ الآن أصبح هندامى سليما لا مأخذ عليه ٠٠٠ لماذا تظل واقفا ؟ أجلس هنا ٠٠ لا ٠٠ انتظر ! ٠٠ لا تبتعد ٠. ماذا نسمع ؟

لقد دوت فى ذرى الاشجار ضجة صماء وهزت الهواء فى الغابة ؟

ـ أهو رعد ؟

ـ لكأنه رعد ؟

ـ انا اذن لفى عيد حقا ! ٠٠٠ لقد كان الرعد هو ما ينقصنا ٠٠٠ ودوت الضجة الصماء مرة أخرى وترجعت ترجعا طويلا ٠

ـ مرحى ! عظيم ! هل تذكر ؟ لقد حدثتك أمس عن الالياذة ... هما أيضا فوجئا بالعاصفة فى غابة ! يجب علينا أن نبحث عن ملجأ نلوذ به ٠

قالت ذلك ونهضت واثبة ٠

ـ هات فرسى ٠٠٠ ناولنى يدك ٠٠٠ لست ثقيلة ٠

ووثبت الى صهوة فرسها خفيفة كعصفور ٠

وامتطى سانين ظهر حصانه ٠

وسألها بصوت متردد :

ـ أتريدين العودة ؟

ـ العودة ؟

قالت ذلك وهي تؤكد مقاطع الكلمة ، وتجمع طرفي الزمام في الوقت نفسه • وأضافت تقول :

ـ اتبعني !

عادت الى الطريق من جانب الصليب الاحمر ، وهبطت الى درب أجوف ، ثم وصلت الى مفرق ، فمشت بجنبه ، وأخذت تصعد الرابية من جديد •

كانت تعرف الى أين هي ذاهبة . وأوغل الطريق في الغابة الكثيفة •

انها تتقدم في سيرها قوية صارمة ، دون أن تقول كلمة واحدة ، ودون أن تلتفت الى وراء ، وسانين يمشي وراءها طيعا ، مفعم القلب مسلوب الارادة •

وأخذ المطر يهطل رذاذا . فاستحثت ماريا نيقولائينا خطا فرسها ، وفعل سانين مثل ذلك •

وأخيرا ، من خلال خضرة أشجار الصنوبر القاتمة ، لمح سانين كوخا بائسا في ظل صخرة صهباء ، وكان باب الكوخ مصنوعا من أغصان متشابكة •

ودفعت ماريا نيقولائينا فرسها الى شق طريقه بين أشجار الصنوبر ، ثم وثبت الى الارض ، وهرعت نحو باب الكوخ . وهناك دمدمت تقول وهي تلتفت الى سانين : « انياذ » .

. . . .

. . . .

بعد اربع ساعات كانت ماريا نيقولائينا عائدة الى فندقها بفسبادن ، مع سانين ، ومع التابع النائم على ظهر حصانه •

فهب بولوزوف الى لقاء امرأته وهو يمسك الرسالة التي كتبها الى الوكيل • فلما أنعم النظر في وجه ماريا نيقولائينا ، قال لها بصوت خافت وقد بدت في وجهه علائم الاستياء :

ـ يظهر أنني فقدت الرهان ، أليس كذلك ؟

فلم تجبه زوجته الا بأن هزت كتفيها •

وفي ذلك اليوم نفسه ، بعد ساعتين ، كان سانين واقفا أمام ماريا نيقولائينا ، في غرفتها ، فاقد الحيلة مسلوب القوى ، كرجل يهوى • قالت له :

ـ والآن ، الى أين تذهب ؟ أ الى باريز أم الى فرنكفورت ؟

ـ أذهب الى حيث تذهبين ، ولن أتركك الا يوم تطردينني !

قال ذلك منهارا وهو يقبل يدى المرأة التى سيطرت عليه واستبدت به • فسحبت ماريا نيقولاتينا يديها ، ووضعتهما على رأس الفتى ، وأخذت تلاعب شعره ، وتعانقه • ثم انتصبت قائمة ، وفي شفتيها صفير نصر . كانت عيناها واسعتين صافيتين حتى لكأنهما بيضاوان ، وكانتا لا تعبران الا عن انتصار وحشي لا يرحم •

لا شك أن عينى الصقر تكونان هكذا حين ينشب مخـــــالبه فى فريسته •

تلكم هي الذكريات التي طافت في خيال سانين حين وجد الصليب الصغير الذي من عقيق ، وهو يرتب أوراقه في هدوء غرفته .

لقد ترابطت هذه الاحداث في ذاكرته ترابطا واضحا .

فلما تصور نفسه بعد ذلك ذليلا يتضرع الى الاميرة بولوزوف ، ويرتمي بين قدميها ، واستيقظت في ذهنه أيام عودته لها ، أراد أن يتحول من هذه الصور ، والا يتذكر . لا لان الـــذاكرة تعـــوزه ! بالعكس ! انها تصور له تصويرا دقيقا كل ما حدث بعد ذلك اليوم . ولكن الشعور بالعار يخنقه خنقا ، وهو رغم السنين الكثيرة التي انقضت على تلك الاحداث ، لا يزال يخشى أن يعدد احتقاره لنفســـه فيسمم جميع مشاعره اذا هو لم يأمر ذاكرته بأن تنسى ! ولكن كيف السبيل الى النسيان !

كيف تمحى من خياله تلك الاحداث كلها ؟

انه يتذكر الرسالة السخيفة الكاذبة المتباكية التي أرسلها الى جيما ، ولم يتلق جوابها ..

كيف كان يستطيع ان يراها ، كيف كان يستطيع ان يعود الى بيتها بعد أن خانها هذه الخيانة ؟ لا ، لا ، لقد بقي له من الضمير والشرف ما يمنعه من ذلك . ثم انه قد فقد كل ثقة بنفسه ، وكل احترام لذاته : لقد أصبح رجلا لا يخفر ذمة ولا يفي بعهد .

وتذكر سانين أيضا أنه أرسل خادم أسرة بولوزوف الى فرنكفورت ليجيئه بمتاعه . كان يخاف أن يمضي بنفســـه الى هناك ، ولا يفكر الا في شيء واحد ، هو أن يسافر بأقصى سرعة الى باريز ، الى باريز .

وتذكر أنه عملا بأوامر ماريا نيقولاثينا ، أخـــذ يتملق زوجها . ويداري دنهوف الذي كان يحمل في اصبعه خاتما من حديد كالخاتم الذي أهدته اليه ماريا نيقولاثينا !!

ثم وافته ذكريات أشد سوادا ، وأدعى الى الخجل والشـــعور بالعار !

في ذات صباح دخل عليه خادم الفندق ، ومد اليه بطاقة عليها اسم : بانتاليون شيباتولا ، المغنى الايطالى في قصر صاحب السمو

الملكي دوق مودين . فرفض سانين أن يلقاه ، ولكنه لم يستطع ان يتحاشاه في دهليز الفندق . فقد ظهر له هنالك وجهه الحانق ذو الزوايا الشمعاء ، والعينين المتقدتين كأنما الجمر ، وسمع صوته يردد بالايطالية كلمات فظيعة :

– غدار .. جبان ، خائن .. وغد .

فاغمض سانين عينيه ، وهز رأسه ، ونظر الى يمين ونظر الى شمال ..

ومرة اخرى ، بينما كان سانين يجلس جلسة غير مريحة على المقعد الامامي الضيق من العربة ، ووراءه على الوسائد الوثيرة ماريا نيقولاثينا وزوجها بولوزوف يجلسان جلسة رخية ناعمة ، والعربة تطير فرحة من فسبادن ، الى باريز .. لمحه مرة اخرى .

كان بولوزوف يأكل أجاصة قشرها له سانين ، وكانت ماريانيقولاثينا تنظر اليه نظرتها الى عبد ، وتبتسم تلك الابتسامة التى اصبح يعرفها ابتسامة المالك ، ابتسامة السيد ..

وفي ركن من الشارع ، عند ظاهر المدينة ، كان يقف بانتاليون! نعم انه بانتاليون ! ومن هذا الذى معه ؟ انه ايميليو ! نعم انه الفتى الصغير المتحمس الذى كان يحب سانين ذلك الحب كله !

أمس كان هذا القلب الشاب يحبه بطلا ، ويعده مثله الاعلى ! أما اليوم فان وجهه الشاحب الجميل ، الذى يبلغ من الجمال أنه لفت نظر ماريا نيقولاثينا فاطلت من نافذة العربة تنظر اليه ، هذا الوجه يفيض اليوم حنقا وسخطا واحتقارا ! وعيناه اللتان تشبهان عينين أخريين شبها كبيرا ، ترشقان الآن سانين بنظراتها ، والشفتان تنقبضان وتقذفان بالشتائم ...

وهاهو ذا بانتاليون يمد يده مشيرا الى ، الى من ؟ الى تارتاجليا . لقد جاء تارتاجليا أيضا ، وها هو ذا ينبح على سانين ، فاذا بنباح الكلب الشريف ينفذ في أذني سانين سبابا لا يحتمل ، واهانة لا تطاق ! يا للعار ! ..

وتذكر حياته بباريز ، وما عانى من أنواع الذل ، وما كابد من عذاب العبودية .. لقد كان هنالك عبدا لا يحق له أن يغار ولا أن يتذمر ، عبدا يهجر ذات يوم كما يهجر ثوب خلق ..

وتذكر عودته الى الوطن ، وتذكر الحياة المحطمة ، الفارغة ، التي جرت تافهة بين سفاسف الامور ، وتذكر الندامة المرة التى لم تجده شيئا ، وتذكر النسيان المر الذى لم يجده شيئا كذلك .

كان ذلك هو العقاب الخفى الذى لا تعقبه راحة ، والالم الأصم الذى لا يشفى .. كان ذلك سدادا بقرش قرش لدين لا يعرف المدين مقداره ..

وقد امتلأ الكيل حتى طفح .

كيف حدث أن الصليب الصغير الذى أهدته جيما الى سانين لا يزال هناك ؟ لماذا لم يرده سانين الى صاحبته ؟ ولماذا لم يعثر عليه قبل الآن ؟

ظل سانين غارقا فى هذه التأملات مدة طويلة ، ولكنه رغم الخبرة التى حصلها بتقدم السن لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه أن يهجر جيما التى أحبها ذلك الحب الرقيق كله ، والتى هام بها ذلك الهيام القوى العنيف .. من أجل امرأة لم يشعر نحوها بالحب فى يوم من الإيام ؟ ..

وما كان أشد الدهشة التى شعر بها أصدقاء سانين ومعارفه حين انبأهم فى الغداة أنه مسافر الى الخارج .

لقد حيرهم هذا النبأ : ذلك أن سانين يترك بطرسبرج فى منتصف الشتاء ، وكان قد أتم منذ قليل تجهيز بيت جميل مريح ، كما اشترى تذكرة اشتراك لحضور الاوبرا الايطالية التى ستغنى فيها باتى نفسها ، نعم باتى نفسها ! ..

وقد تساءل أصدقاء سانين عن الاسباب التى تدفعه الى السفر ، ولكن الناس ليس لهم من وقتهم ما يفنونه على شئون غيرهم . فلما جاء اليوم الذى سافر فيه سانين الى الخارج لم يصحبه الى المحطة الا شخص واحد ، فرنسى ، هو خياطه ، وقد صحبه الى المحطة أملا فى تقاضى مال له عليه ، هو أجرة « رداء من المخمل الاسود أنيق جدا »،

لقد أنبأ سانين أصدقاءه بانه مسافر الى الخارج ، ولكنه لم يذكر لهم الجهة التي يسافر اليها .

وقد مضى رأسا الى فرنكفورت .

بعد أربعة أيام من السفر ، حط رحاله في هذه المدينة التى لم يعد اليها منذ عام ١٨٤٠ .

ان فندق « البجعة البيضاء » لا يزال حيث كان ، ولـكنه ليس الان من فنادق الدرجة الأولى .

واذا كان شارع « زايل » ، وهو الشارع الرئيسى بفرنكفورت لم يتغير الا قليلا ، فان الشارع الذى كان يقع فيـه دكان روزيلى لم يبق له من أثر .

وكان سانين ، كالتائه ، في هذه الامكنة التى ألفها فى الماضى وأصبح الان لا يعرف فيها شيئا . لقد حلت محل البيوت القديمة أبنية عالية وفيللات انيقة . وحتى الحديقة التى تواعد سانين مع جيما على اللقاء فيها قد كبرت الان ، وبلغت من الاتساع حتى أن سانين تساءل أهى تلك الحديقة نفسها حقا ؟ ..

كيف يجد سانين نفسه ؟ الى من يتجه ؟ لقد انقضى على ذلك العهد ثلاثون عاما ! ..

ان الأشخاص الذين سألهم سانين لم يسمعوا يوما باسم روزيلى وقد نصحه مدير الفندق أن يذهب الى المكتبة العامة ، وأن يقلب هنالك الجرائد القديمة ، ولكن أنى لهذه الجرائد أن تمده بالمعلومات التي يبحث عنها ! ولم يستطع أحد أن يخبره بشىء . فلمـا يئس سأل عن السيد كلوبر .

آ .. السيد كلوبر .. كل الناس تعرفه . ولكن ما علمه سانين عنه ليس هو ما كان يريد أن يعلمه . فلقد قيل له ان هذا البائع الانيق قد أثرى ثراء طائلا ، ثم اخذ يتعاطى أعمالا تجارية غير قانونية، فافلس ومات فى السجن .

ولم يعبأ سانين بكل هذه الانباء . حتى اذا وقع ذات يـــوم ، عرضا ، في دفتر التليفون ، على اسم فون دنهوف ، الضابط المتقاعد ،

ادرك ان كل ما قام به قبل ذلك من بحث كان يعوزه التروى .
وما هى الا لحظه حتى كانت عربه من العربات تمضى به الى العنوان المذكور فى دفتر التليفون .
هل دنهوف هذا هو ذلك الضابط نفسه الذى عرفه ؟ وصبه هو بعينه ، فهل فى وسعه أن يخبره بشىء عما آلت اليه أسرة روزيلى ؟ .
ان الغريق ليتعلق بقشة !
ووجد سانين الضابط فوق دنهوف فى بيته ، فلم يلبث أن رأى فى هذا الرجل الاشيب خصمه القديم .
وقد عرفه دنهوف أيضا ، وسره أن يراه ، فان ذلك يذكره بشبابه ومغامراته .
واستطاع سانين أن يعلم منه أخيرا ان أسرة روزيلى قد هاجرت منذ مدة طويلة الى أمريكا ، الى نيـــويورك ، وأن جيمـــا قد تزوجت تاجرا ، وأنه — أى دنهوف — يعرف تاجرا بفرنكفورت لعله يعرف عنوان زوج جيما ، لان له علاقات بأمريكا .
فرجا سانين الضابط دنهوف أن يحصل له على هذا العنوان ومن حسن الحظ أن خصمه القديم جاءه به : السيد يرمياه سلوكوم ، نيويورك ، برودواى ، رقم ٥٠١
ولكن العنوان يرجع الى عام ١٨٦٣
وصاح دنهوف يقول :
— نرجو أن تكون رائعة فرنكفورت لا تزال على قيد الحياة ، ولا تزال تقيم بنيويورك .
ثم أضاف وهو يخفض صوته :
— بالمناسبة .. هل تلك السيدة الروسية .. أنت تعرف من أقصد .. تلك السيدة الروسية التى كانت بفسبادن .. السيدة بو .. بولوزوف .. الا تزال على قيد الحياة ؟
فأجاب سانين :
— لا .. لقد ماتت منذ مدة طويلة .
فاطرق دنهوف ، ولكنه حين رأى سانين يشيح بوجهه ويعبس ، لم يضف شيئا آخر ، وانسحب .
فى ذلك اليوم نفسه بعث سانين برسالة إلى السيدة جيما سلوكوم ، بنيويورك ، يقول فيها انه يكتب اليها من فرنكفورت ، وانه جاء الى هذه المدينة ليراها ، وهو يعلم حق العلم ، انه لايحق له أن ينتظر منها جوابا على هذه الرسالة ، لانه لا يستحق غفرانها . وكل ما يامله هو أن

تكون قد نسيت حتى وجوده وهى تتقلب بين أعطاف السعادة ·
وأضاف الى ذلك أنه قرر فجأة أن يكتب اليها على أثر ظرف أيقظ في نفسه صور الماضي بقوة لا يستطيع لها دفعا !
وقص على جيما الحياة التى يعيشها وحيدا ، بلا أسرة ولا فرح ·
ورجاها ألا تسيء الظن فى البواعث التى دفعته الى كتابة هذه الرسالة · فانه لا يستطيع أن يموت وهو يعلم أن الاثم الذى ارتكبه وعانى فى التكفير عنه ما عانى من ضروب العذاب لم يغفر ·
وتوسل اليها أن تخبره بكلمتين عن حالتها في الوطن الذى اختارته لنفسها ·
وأضاف يقول وهو يختم رسالته :
« ان كلمة واحدة تصلني منك لهى عمل طيب لا يستغرب أن يصدر عن روحك النبيلة ، وسأظل أشكره لك الى أن ألفظ آخر أنفاسي · أنا الان في فندق « البجعة البيضاء » بفرنكفورت ، وسأنتظر جوابك هنا الى آخر الربيع » ·
ارسل سانين كتابه وانتظر ·
وقضى فى الفندق ستة أسابيع لم يبارح غرفته خـــلالها ، ولا لقى أحدا · وسره أن أصدقاءه في روسيا لا يستطيعون ان يكتبوا اليـــه لجهلهم بعنوانه · وبذلك يكون في وسعه ، متى وصلته رسالة ، أن يعرف ممن هى الرسالة ·
وكان يظل يقرأ من الصباح الى المساء ، لا يقرأ صحفا بل كتبا جدية ومؤلفات تاريخية ·
كانت هذه القراءات الطويلة وهذه الساعات الصامتة وهذه الوحدة تناسب حالته النفسية ، وكان يشكر لجيما أنها أتاحت له ذلك كله من غير أن تقصد ·
ولكن أما زالت جيما حية ؟ ترى هل تجيب على رسالته ؟
وأخيرا وصلت الرسالة التى انتظرها سانين فى كثير من الشوق ، وعليها طابع بريد أمريكى ، من نيويورك ! وكان العنوان مكتوبا باللغة الانجليزية ·
لم يتعرف سانين هذا الخط فانقبض صدره · انه يخاف أن يفض الرسالة · ونظر فى التوقيع فاذا هو : جيما ·
فما ان رآه حتى انهمرت الدموع من عينيه ·
ان تذييل الرسالة بهذا الاسم ، دون ذكر اسم العائلة ، يبشر بأنها غفرت له ·

وفيما هو ينشر الورقة الناعمة الزرقاء التي كتبت عليها الرسالة سقطت منها صورة فوتوغرافية على الارض ، فأسرع بتناول الصورة ، ونظر اليها فشده : انها جيما ، جيما فى صباها ، كما عرفها ، منذ ثلاثين عاما ،العينان هما العينان ، والفم هو الفم ، والوجه هو الوجه.

وفى ظهر الصورة قرأ سانين هذه الجملة : « ابنتي ماريانا » .

ان الرسالة بسيطة تفيض طيبا ونبلا .

ان جيما تشكر لسانين أنه لم يشك فيها وأنه أولاها ثقته . وهى لا تخفى عنه أنها تألمت بعد هرب خطيبها ألما شديدا قاسيا ، ولكنها تضيف الى ذلك أنها لاتزال وستظل الى الابد تعد لقاءها بسانين سعادة كبرى ، لأن هذا اللقاء منعها من الزواج بكلوبر ، فكأن سانين هو الذى كان السبب غير المباشر في زواجها بالسيد سكولوم الذى هيأ لها السعادة منذ ثمانية وعشرين عاما ، وكفل لها حياة يسر ورخاء ، لان محلهما معروف فى نيويورك كلها .

وذكرت جيما بعد ذلك أن لها خمسة أولاد : اربعة بنين ، وبنتا فى الثامنة عشرة من عمرها ، مخطوبة . وهى ترسل اليه صورة ابنتها التى يجمع كل من راوها على أنها تشبه امها .

ولم تذكر جيما الانباء الحزينة الا فى آخر الرسالة .

فقالت ان السيدة لينور ماتت فى نيويورك حيث صحبت ابنتها وصهرها ، وانها عاشت المدة التي عاشتها سعيدة بسعادة أبنائها وتربية أحفادها .

وقالت ان بانتالبون كان سيصحبهم الى نيويورك لولا أنـــه مات صبيحة يوم السفر !

« أما ايمليو ، ايمليو العزيز ، فقـــد مات هو أيضا ، مات ميتـــة الابطال ، فى سبيل حرية وطنه ، مات فى صقلية محاربا في صفوف « الالف » تحت قيادة غاريبالدى العظيم . وقد بكينا فقد أخينـــا الحبيب بكاء سخينا ، ولكننا كنا ، ونحن نبكيه ، نعتز وسنظل نعتز به ! ان ذكراه مقدسة فى قلوبنا ! لقد كانت روحه السمحة النبيلة تستحق تاج الشهادة فى سبيل الوطن ! »

وقالت جيما فى ختام رسالتها انه ليؤسفها حقا أن حياة سانين لم تكن سعيدة ، وانها تتمنى له طمأنينة الروح قبـــل كل شيء ، واضافت الى ذلك أنها سيسعدها أن تراه ، وان يكن الأمل فى مثل هذا اللقاء ضعيفا .

يستحيل على المرء أن يعبر عما شعر به سانين وهو يقرأ هذه

الرسالة . ذلك ان العواطف التي أحس بها أعمق وأقوى واغمض من ان يفصح عنها الكلام . ان الموسيقى وحدها تستطيع أن تعبر عن هذه العواطف .

وأسرع سانين يجيب على رسالة جيما . وأرســـــل الى ماريانا سلوكوم هدية « من صديق مجهول » بمناسبة زفافها ، هي الصليب الصغير الذى من عقيق بعد أن زينه بلآلىء ثمينة . ان هذه الهدية لم تؤثر فى غنى سانين رغم أنها ذات قيمة كبيرة . ذلك أن سانين كان خلال الاعوام الثلاثين التى انقضت على عودته من فرنكفورت قد أثرى ثراء كبيرا .

وعاد سانين الى بطرسبرج فى أول شهر أيار . ولكن أغلب الظن انه لن يمكث فيها طويلا .

فالناس تؤكد أنه يحاول أن يبيع أملاكه ، وأن فى نيته أن يسافر الى امريكا .

« انتهت »



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكر الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة
** شهر فبراير 2020 **
www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

Exclusive
For
www.ibtesama.com